الميسَّر في تعزيز اليقين (١):

أدلَّة وجود الله عزَّ وجلَّ وكماله

تأليف:

مجموعة من المؤلفين

بإشراف د. طارق بن طلال بن محسن عنقاوي

حقوق الطبع محفوظة لمشروع الميسّر في تعزيز اليقين

يسمح بطباعة المقالات ونشرها للثواب مع عزوها للميسّر في تعزيز اليقين

ولا يسمح بطباعتها للأغراض التجارية بدون إذن من القائمين على المشروع

للتواصل : tariq.angawi@gmail.com

الطبعة الأولى

١٤٤٣ - ٢٠٢١

لمتابعة مقالات المُيسَّر في تعزيز اليقين

يمكنكم الاشتراك في حساباتنا على مواقع التواصل الاجتماعي

تليجرام (https://t.me/moyassaryaqeen)

moyassaryaqeen

تويتر (https://twitter.com/moyassaryaqeen)

moyassaryaqeen

فيس بوك (https://fb.me/moyassaryaqeen)

moyassaryaqeen

فهرس

- افتتاحية للتعريف بمشروع "المُيسَّر في تعزيز اليقين" ٥
- التعريف بالمستوى الأول: أدلة صحة أصول الإسلام ١٢
- لماذا الحديث عن أدلة وجود الله ﷻ ؟ ١٥
- الدليل الأول من أدلة وجود الله ﷻ : دليل الخلق والإيجاد ١٩
- الدليل الثاني من أدلة وجود الله ﷻ : دليل الإتقان والإحكام ٢٩
- الدليل الثالث من أدلة وجود الله ﷻ : دليل الحياة ٤٤
- الدليل الرابع من أدلة وجود الله ﷻ : دليل الوعي ٥٨
- الدليل الخامس من أدلة وجود الله ﷻ : دليل القدرات العقلانية ٦٧
- الدليل السادس من أدلة وجود الله ﷻ : دليل القيم المطلقة ٧٤
- الدليل السابع من أدلة وجود الله ﷻ : دليل الجمال ٨٠
- الدليل الثامن من أدلة وجود الله ﷻ : دليل الإرادة الحرة ٩٢
- الدليل التاسع من أدلة وجود الله ﷻ : دليل الغرائز ١٠١
- الدليل العاشر من أدلة وجود الله ﷻ : دليل أصالة التدين ١١٢
- الكمال الإلهي، أدلته وآثاره ١٢٤
- إضاءات عن الاستدلال على وجود الله تعالى ١٣٤

الكاتب : هادي صبري - ريهام سامح - طارق عنقاوي
مراجعة: طارق عنقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية للتعريف بمشروع "المُيسَّر في تعزيز اليقين"

الحمد لله العليم الحكيم، العزيز الرحيم، خلق كل شيء فسوى وأحكم، وأظهر براهين دينه فرحم وأنعم، والصلاة والسلام على رسوله الذي أرسله بالهدى ودين الحق، فأيده بالبراهين الساطعة، والحجج القاطعة، وجعل دينه خاتمًا للأديان، ماحيًا لكل ضلال وطغيان.

أولًا: تمهيـــد

- **اليقين .. خير نعمة وأعظم زاد**

اعلم – رحمك الله – أنه ما من مسافر إلا ويحتاج لزاد يُعينه على مشاقّ الطريق، وأعظم ما يتزود به العبد في سفره للجنة هو (اليقين)، فهو المُثبت على طريقها المحفوف بالشهوات، وبه يصل العبد لدرجة من الاطمئنان بالإسلام تجعل إيمانه راسخًا شامخًا لا يحول ولا يتغير، مُحاطًا بدرع متين يحميه – بحول الله وقوته – من هجمات المُشككين وفتن المتربصين؛ لذا كان اليقين خير نعمة يُرزق بها العبد، كما في الحديث: «أَلَا إِنَّ النَّاسَ لَمْ يُعْطَوْا شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا خَيْرًا مِنَ الْيَقِينِ وَالْعَافِيَةِ، أَلَا فَسَلُوهُمَا اللَّهَ»[1].

[1] مسند أحمد (٣٨).

• **ولأهمية اليقين** وعِظم ثمرته؛ كان السلف -رحمهم الله- يتواصون بتعلم اليقين؛ كما ورد عن خالد بن معدان أنه قال: "تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ كَمَا تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ حَتَّى تَعْرِفُوهُ، فَإِنِّي أَتَعَلَّمُهُ"[١].

• **ومن ثمرات اليقين** تذوق حلاوة الإيمان، ولذا قال ابن القيم: "اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون"[٢]، وقال رحمه الله: "فاليقين روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصدِّيقية"[٣].

• **وباليقين** يصبر العبد على الابتلاءات ويطمئن قلبه مهما حلت بها الصعاب والكروب، ولذا كان من دعاء النبي ﷺ: «وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصائب الدُّنْيَا»[٤].

• **واليقين** أصلح أول هذه الأمة، كما رُوي في الحديث: «صلاحُ أوَّلِ هذهِ الأُمَّةِ بالزُّهدِ واليَقينِ»[٥]، ولن يصلح آخرها إلا ما أصلح أولها.

• **وأهل اليقين** أكثر من ينتفع بآيات الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٦]، وقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[٧].

وغير ذلك الكثير من الثمرات، فحقًّا لن يؤْتى عبد نعمة خيرًا من نعمة اليقين.

---

[١] اليقين لابن أبي الدنيا (٧).
[٢] مدارج السالكين (٢ ، ٣٧٤).
[٣] مدارج السالكين (٢ ، ٣٧٤).
[٤] سنن الترمذي (٣٥٠٢).
[٥] الزهد لأحمد (٥٢).
[٦] البقرة: ١١٨.
[٧] الذاريات: ٢٠.

• كيف السبيل!

والوصول إلى اليقين والسعي في تعزيزه له سبل متعددة، **من أهمها:**

⇦ **التعرف على الأدلة والبراهين التي تثبت صحة الإسلام وأصوله ومصادر تشريعه.**

فدين الإسلام هو الدين الحق، والوحي الصدق، دين الفطرة ذو البراهين القوية القريبة من العقول والقلوب، القائمة على ما لا يملك الإنسان إنكاره من بدهيات الفطرة والعقل، براهين تدخل إلى شغاف القلوب بلا استئذان، بل إنها لا تدخل إلى القلوب إلا وتجدها مهيئة مستعدة لاستقبال هذا الدين، وكأن قلوب البشر بيوت قد أُعدت لاستقبال أصحابها، براهين يدركها الصغير والكبير، ويعقلها الناس على اختلاف طبائعهم وعاداتهم وثقافاتهم وتعليمهم.. إنها لك أيها الإنسان.

⇦ **التعرّف على حقيقة هذا الدين، والوقوف على جمالياته وبدائعه في العقيدة والعبادة والأخلاق والأحكام، والعناية بالتزكية وسموّ النفس، والبناء المنهجي في جانب الاستدلال والتفكير والنقد.**

ولقد اعتنى الوحي بهذه السبل عناية كبيرة، فما أكثر البراهين على صحة أصول الإسلام في الوحي، مذكورة بأبلغ عبارة وأقوى بناء استدلالي، وما أكثر الآيات التي تُظهر محاسن الشريعة وجمالها؛ ولذا مَن نهل مِن الوحي، سلك السبل النافعة البعيدة عن كل زيغ وضلال، وبلغ مُراده وحصل على مافيه شفاء للصدور وإقناع للعقول وطمأنينة للنفوس.

- **و اقع مؤلم!**

وقد أدّى الانشغال بهموم الحياة عن الهم الأخروي الأكبر إلى غفلة كثيرٍ من الناس عن جمال هذه البراهين وروعة هذه المضامين، حتى ضعف اليقين وغاب الشعور بحلاوة الإيمان، وضعف الإحساس بالخشوع في أداء العبادات، بل صار بعض الناس عرضة للشبهات والتأثر بها.

ومهما ابتعد الإنسان وانغمس في الملذات والمشغلات؛ فستظل روحه في حاجة إلى اليقين والخشوع وحلاوة الإيمان، وسيظل في أعماقه أسئلة وجودية لم ينفك البشر عن التفكير فيها، فمَن مِن البشر لا يحتاج لليقين وثمرته؟ومن منهم لا تطرق بابه مثل هذه الأسئلة؟ من أين أتينا؟ وكيف أتينا؟ وما هي الغاية من وجودنا هنا؟ من خلقنا؟ وماذا يريد منا؟ ما سر كل هذا الإبداع والإتقان في المخلوقات؟ ما سر هذا الانتظام وتلك القوانين الكونية؟

ولن يجد الإنسان الشفاء التام الشامل إلا بالوحي الصادق، الذي تحفظ به الفطرة ويرشد به العقل وتطمئن به النفس.

لذا لا بد من تضافر الجهود لتذكير الناس بهذه البراهين وتلك المحاسن والمضامين، لتعود إلى تلك القلوب المتعبة قوتها، وترجع إليها راحتها، وتنعم باليقين لتنال بإذن الله سعادتها.

ثانيًا: فكرة المُيسّر في تعزيز اليقين

ولأجل المساهمة في إحياء هذا المسار، والمشاركة في هذا المضمار، ولدت فكرة كتاب يعزز اليقين ويؤسس للإيمان تأسيسا قويا، وذلك بذكر البراهين والأسس التي يقوم عليها، بشكل منظم مبوب.

ولما كان في أسلوب كثير من الكتب القيمة التي عنيت بهذا الأمر شيء من الصعوبة لا تناسب بعض القارئين، فقد توخينا أن يكون هذا الكتاب مناسبا لجميع الفئات؛ وذلك بأن يكون أسلوب المقالات فيه جامعا بين أمرين: سهولة

العبارة وجمالها، وقوة البرهان وصحته، وقد جاءت مواضيع هذه المقالات شاملة لأصول دين الإسلام .

١. فقد تناولت في **مستواها الأول موضوع أدلة صحة أصول الإسلام** بما فيه من حديث عن البراهين المثبتة لوجود الله ﷻ، والبراهين المتعلقة بالنبوات، والبراهين المثبتة لنبوة سيدنا محمد ﷺ، وبراهين صدق القرآن وبيان إعجازه.

٢. كما تتناول هذه المقالات في **مستواها الثاني حقيقة دين الإسلام وجماليته**، وذلك بذكر حقائق الدين الأساسية، ومبادئ العقيدة الأساسية وأدلتها، والحديث عن تزكية النفس وحياة القلوب، وبيان جمالية الدين ومحاسنه.

٣. ثم تتناول هذه المقالات في **المستوى الثالث ما يتعلق بمصادر تلقي المعارف عموما، ومصادر تلقي مسائل الدين بشكل خاص**، وتتناول القواعد الاستدلالية التي توصلنا إلى فهم الأدلة فهما سليما.

٤. وختم المقالات يكون في **المستوى الرابع بتناول قواعد منهجية ومهارات في التفكير الناقد**، تعين المسلم على التفكير بالشكل الموصل إلى الصواب، وتمييز المعايير الحقيقية للوصول إلى صحة الأفكار من عدمها، وتشكل له درعا أوليا يحمله في وجه أصحاب التضليل والمغالطات، وتعينه على تفكيك الشبهات، وكشف مواطن الخلل فيها.

هذا، وقد أنجز مشروع المُيسر في تعزيز اليقين نشر مقالات المحور الأوّل من المستوى الأوّل على قناته في التليقرام وغيرها من وسائل التواصل، ولمّا تكامل ذلك رأينا نشرها في كتاب مستقل، وهو ما نضعه بين أيديكم في هذا الملف.

ونسأل الله ﷻ أن يفتح علينا جميعًا بالحق فتحًا مبينًا، ويرزقنا حلاوة الإيمان واليقين، ويُحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ونرجوه جلّ وعلا أن يتقبّل ممن شارك في هذا المشروع الطيب، ومن كل مَن كتب وتابع وأشرف ودقّق وحرّر وبحث وساعد في سبيل إنتاج هذه المقالات، ونشكرهم جميعا جزيل الشكر على جهودهم، ونخص بالذكر :

هادي بهجت صبري

زياد أسامة خياط

ريهام سامح الرافعي

تسنيم راجح - سمر لطفي

آسية الحاجي - ندى الأشرم

زينب صلاح - غادة عبد الرحمن

علي جلال - د.محمد السيد

رضا أحمد السباعي

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المشرف العام/ د. طارق طلال عنقاوي

التعريف بالمستوى الأول
أدلة صحة أصول الإسلام

التعريف بالمستوى الأول: أدلة صحة أصول الإسلام

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله.

تحدثنا سابقًا عن أهمية اليقين وثمرته، وبشرناكم بأننا سنسلك معًا بعض الطرق الموصلة إليه بإذن الله، وذلك بنشر مقالات متتابعة في تعزيز اليقين في الإسلام وأصوله، وإبراز حقيقته ومحاسنه وجمال تشريعاته؛ ليزداد القلب حبا للدين واطمئنانا وسعادة وفخرا به، مع التعريج على بعض ما تحصل به تزكية النفس وحياة القلوب، لتتم الفائدة بحول الله وقوته .

وسيكون هذا عبر مستويات نتدرج فيها حتى نصل لهدفنا المنشود، نفتتحها بالمستوى الأول، والذي هو بعنوان (أدلة صحة الإسلام) ، **وسيكون الحديث فيه عن ثلاثة محاور:**

- **المحور الأول: أدلة وجود الله عزوجل وكماله.**
- **المحور الثاني: أدلة النبوات ونبوة نبينا محمد ﷺ .**
- **المحور الثالث: دلائل صدق القرآن الكريم وبيان أوجه إعجازه .**

أدلة وجود الله ﷻ وكماله

الكاتب : ريهام سامح - هادي صبري
مراجعة: طارق عنقاوي

لماذا الحديث عن أدلة وجود الله ﷻ ؟

تمهيـــد

سنبدأ رحلتنا في تعزيز اليقين بالحديث عن الإيمان بالله عزوجل، وما أعظمه من حديث وما أشرفه، نتعرف فيه على أدلة وبراهين وجود الله عزوجل، واتصافه سبحانه بصفات الكمال والجلال.

والعلم بالله عزوجل أول الواجبات وأشرف الغايات، بل هو أصل كل شيء، وهل خُلقت الدنيا إلا لمعرفة الله وعبادته!؟ لذا حريٌ بنا أن نهتم بركن الإيمان بالله عزوجل، لنزداد معرفةً وحبًّا لهذا الإله الخالق العظيم، فنعيش في نعيم عبودية الله عن علم ويقين؛ هذا النعيم الذي لا يُعوضه شيءٌ من ملذات الدنيا بأسرها، ومحرومٌ محرومٌ من لم يهنأ بالعيش في رحابه، كما قال أحد السلف : "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له وما أطيب ما فيها، قال: معرفة الله عز وجل ومحبته".[١]

أفي الله شك !؟

قد يقول قائلٌ : وهل نحن في حاجةٍ إلى أن نتعرف على براهين وأدلة وجود الله عزوجل في مسيرتنا لتعزيز اليقين!؟

– فنقول : إن التعرف على براهين وأدلة وجود الله عزوجل ليس لخفاء الأمر أو الشك فيه أبدًا؛ فحقيقة وجود الله واتصافه بصفات الكمال والجلال من المسائل الواضحة البدهية، ومن الأمور التي غُرست في نفوس البشر، بحيث لا يجدون لها دفعًا، بل يرون أنفسهم تنساق إلى هذه الحقيقة دون حاجة إلى

[١] إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ط عطاءات العلم (١ ، ١١٩)

برهنة أو كلام، ومن رحمة الله بعباده أن جعل شواهد ودواعي وبراهين الإيمان به ﷻ كثيرة ضرورية متنوعة:

• منها أدلة نابعة من الفطرة البشرية؛ فالله ﷻ خلق عباده مفطورين على عبادته ومحبته كما قال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[١]، وهذه الفطرة لها سطوة تُعين المرأ على الإنقياد لأدلة وجود الله، وإذا انتكس الإنسان عن هذه الفطرة، صارت روحه إلى سجن وضيق، وقلبه في اضطراب وتحيّر وتيه.

• ومنها براهين تُخاطب العقل وتقنعه وتقيم الحجة عليه، فلا يملك أي عاقل بعد معرفتها إلا الإيمان بالله .

• ومنها ما نصل له بالتفكر والتأمل في مظاهر الإبداع والإتقان والإحكام في هذا الكون العظيم ...

وغير ذلك الكثير والكثير من الأدلة والبراهين، فكل شيء في الكون على الله دليل، وكل الأسس التي قامت عليها العلوم والمعارف البشرية، ويتفق عليها البشر في حياتهم وتعاملاتهم، تقودهم إلى الإيمان بوجود إله خالق متصف بالكمال.

فمن هنا لا مجال للشك في وجود الله خالقًا وإلهًا عظيمًا؛ لذا جاء في القرآن الكريم الاستنكار الشديد لمن يجحد عبودية الله وحده فضلًا عن جحد وجوده، كما قال عزوجل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢] ! ولذا كان اختلاف البشرية حولها قليلًا، بل لا يكاد يُذكر.

---

[١] الروم: ٣٠.

[٢] إبراهيم: ١٠.

و إنما هدف تعلم هذه البراهين والتعرف على أدلة وجود الله عزوجل:

- **تقوية الإيمان في قلب المسلم**، وانتقاله من الغفلة إلى اليقظة، حتى يصير إيمانه راسخًا كالجبال لا تؤثر فيه فتنةٌ، بل يكون كالمصباح المنير يُضيء الطريق لمن حوله إذا ازداد ظلام الشبهات حلكة.

- والتعرف عليها يُعتبر **من طرق العلم بالله الذي يُورث خشية وتعظيم الملك** ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١].

- إضافة إلى أنه **من أعظم أسباب تذوق حلاوة الإيمان واستشعار القرب من الله** عز وجل؛ هذا القرب الذي يجعل المُحب على استعداد بأن يضحي بنفسه ودنياه ولا يكون كافرا جاحدا بمولاه.

فإذا كنت تشكو من قسوة القلب وقلة الدمع، أكثر من زادك في التعرف على الله والتأمل في دلائل عظمته وبراهين وجوده، والتي سنقف عليها في مسيرتنا بإذن الله تعالى.

- كما أن تعلمها وتأمل صفات الله عزوجل وكماله وتذكر إنعامه على البشر وتدبيره لكل الكون، **لمن أعظم الأسباب التي تجعل القلب متعلقًا بالله** تعالى وحده مخلصا له الدين؛ والقلب إذا تعلق بالله تعالى وحده وأخلص وجد الراحة والطمأنينة والسعادة، وإذا لم يتعلق به ظل قلبه تائها ضائعا في مراتع الهوى، ينتقل من التعلق بمخلوق ناقص، إلى التعلق بمخلوق ناقص آخر، فلا يهتدي مخرجا، ولا يجد فرجا.

فاعقد يا عبد الله قلبك على هذه المعاني والنوايا قبل أن نشرع معًا في التعرف على الأدلة والبراهين التي تثبت وجود الله عزوجل، سائلا مولاك العون والهدى والرشد والسداد .

---

[١] فاطر: ٢٨.

الكاتب : هادي صبري
مراجعة: طارق عنقاوي - ريهام سامح

الدليل الأول من أدلة وجود الله ﷻ: دليل الخلق والإيجاد

مبدأ السببية

طفل صغير ينظر في لعبته المضيئة.. يقلبها، يتفحصها إلى أن يجد زر تشغيل ذلك الضوء...

عالم طبيب يلاحظ مرضا ينتشر بين الناس، فيبحث ويتفحص المرضى المصابين، يحمل همّا عظيما لذلك، لا ينام ليله...

مزارع يزرع أرضه فيجني محصولا أكثر من المعتاد، فينظر في الأرض، في السماد، في البذور، يتأمل في كل خطوة خطاها في هذا الموسم...

ما تقدم هو صور من الحياة اليومية، نعيشها جميعا أو يعيشها بعضنا، كلنا يطلب فيها أسباب ما يراه أو يسمعه..

ذلك الطفل يريد أن يعرف ما سبب إضاءة لعبته ليستمتع بها.. لم يخبره أحد أن يبحث عن هذا السبب، بل إنه لم يتواصل بعدُ مع محيطه بشكل كامل.

وذلك العالم الذي لن تسكن نفسه حتى يعلم ما سبب ذلك المرض.

وذلك المزارع الذي جنى محصولا وفيرا، يريد أن يعرف السبب في ذلك، ليعيد الكرّة وينعم برزق وفير.

إذا كانت هذه الأحداث البسيطة التي نعشها تدفعنا دفعا نحو طلب الأسباب، فإن عقولنا لن ترضى أبدا بأن يقول لنا شخص ما: ما ترونه لا يوجد له سبب، هو هكذا و انتهى الأمر!

فطرية السببية

في عقولنا وفطرنا مبدأ يسمى بمبدأ السببية، ويعني أن كل شيء وُجد بعد أن لم يكن موجودا – وهو ما يسمى بالحادث – فإنه لا بد من سبب قد أدى إلى وجوده.

لقد غُرس هذا المبدأ في فطرتنا كبشر، لا مناص منه لأحد، ولا يستطيع الإنسان الاقتناع بخلافه، ولا يحتاج إلى إقامة الحجج والبينات على صحته.. كما تعلم أنك موجود، كما تحس بذاتك، كما تأكل وتتنفس.. فأنت تعلم أن لكل شيء سببا، ولم يعلمك أحد هذا بل هو فطري وتجده ضرورة من نفسك، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله: "لو ضُرِبَ الصبي ضربة، فقال : من ضربني ؟ فقيل: ما ضربك أحد لم يصدِّق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل"[١].

ولكونه فطريًّا ..

أنت لا تحاول إقناع شخص يسير في صحراء فيرى في وسطها ساعة ملقاة على الأرض، جميلة متقنة الصنع، لا تحاول إقناعه بأنه لا سبب لوجودها هنا!

وإذا رأيت تمثالا لطفل صغير فلن يخطر ببالك إلا أن لهذا التمثال صانعا ماهرا، مع أن هذا التمثال مجرد صورة خارجية، ليس فيه حياة ولا عقل ولا أعصاب ولا أعضاء، ولا أي تعقيد، فما بالك بالطفل الآدمي الصغير الذي يروح ويجيء أمامك بكل حيوية وسرور .. لا بد له من خالق مبدع!

وإذا رأيت قصرا منيفا، مشيد البنيان، مزخرف الأبواب والجدران، في تلك الصحراء الموحشة القاحلة، فلن يخالجك شك في أن هذا القصر قد بناه بنّاء متقن.. ولن تفكر -ولو للحظة- أن عاصفة قوية هبت على مجموعة من الأحجار والأخشاب والإسمنت وأدوات البناء، فنتج عنها ذلك القصر!فكيف إذا قيل أنه حدث بدون سبب أصلا!

---

[١] الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٣ ، ٢٠٣).

حقيقة لا يستطيع عاقل مكابرتها !

نعم لا يستطيع عاقل المكابرة في مبدأ السببية، ولا يختلف على ضرورة وجود الصانع أحد من البشر البتّة، حتى الأطفال !

يقول المتخصص في دراسة الأصول النفسية والأنثروبولوجية للأديان جيمسلوبيا: "تنتاب الدهشة كثيرًا من الناس وهم يشاهدون استيلاء سؤال الخلق على خواطر الأطفال، يشاهد الطفل حجرًا في تشكّل على نحو غريب، ثم يسأل: مَن صنعه؟ فيأتي الجواب: لقد تشكل بفعل انسياب تيار الماء. ولكنه وعلى نحو مفاجئ لا يلبث أن يقذف بسلسلة من الأسئلة المتعاقبة، المعبرة عن ذهوله بقدر تعبيرها عن تساؤله: مَن صنع النهر؟ مَن صنع الجبل؟ مَن صنع الأرض؟ مِن دون شك، ضرورة الصانع مغروزة في الإنسان البدائي منذ وقت مبكر"[١].

بل حتى الخصوم، لايمكنهم المكابرة في ذلك وإن تظاهروا بخلافه، لهذا أفحم أبو حنيفة -رحمه الله- خصومه بمجرد تجلية هذه الحقيقة أمامهم، فقد روي أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى. فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أُخبرت عنه: ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر [فيها بضائع كثيرة]، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها؛ وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل. فقال: ويحكم! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!!.. فما كان منهم إلا أن رجعوا إلى الحق[٢].

---

[١] Leuba, James H. (1909) The Psychological Origin and the Nature of Religion. Bryn Mawr College, USA, p. 41 - ترجمة دكتور عبد الله الشهري في كتاب: ثلاث رسائل في العقل والعلم والإيمان (١٠٤).

[٢] شرح الطحاوية لابن أبي العز (٨٣)، وذكرها بن كثير في تفسيره.

كوننا وما فيه من مخلوقات دليل على وجود الخالق ﷻ !

إذا علمنا شدة رسوخ هذا المبدأ فينا بحيث لا تقبل عقولنا وجود تلك الأمثلة البسيطة بدون سبب، فلننظر في أمرين :

- في هذا الكون الذي نعيش فيه، كيف يدلنا على وجود الخالق؟
- وفي المخلوقات التي نراها حولنا، كيف نستفيد من علمنا بأنها لم تكن موجودة ثم وُجدت؟

أما كوننا هذا ..

ففيه دلالة باهرة على وجود الخالق ﷻ، فإذا كنا لم نستوعب أن يوجد تمثال لطفل صغير بلا سبب، فكيف سيكون هذا الكون قد وُجد بلا سبب؟! بل لا بد أن يكون قد أوجده خالق عليم قدير حكيم..

فأصل وجود الكون فيه دليل على أن له موجِدا، فكيف إذا أضفنا إلى ذلك ما في الكون من إتقان وإبداع، وقوانين دقيقة يسير عليها؟ فلكل نجم مسار، ولكل كوكب وجهة هو موليها، ولكل مجرة مكانها الفسيح.

الليل يتعاقب مع النهار بشكل دائم، تقل ساعات النهار أو الليل بحسب الفصول، زيادة ونقصان دائم مستمر ومضبوط بضبط لا يتغير، بحيث صرنا نرتب حياتنا على هذا الأساس، ذلك لأن حركة الأرض حول الشمس منتظمة، ليس فيها عشوائية ولا فوضى، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [١].

---

[١] يس: ٤٠.

لا شك سيزداد عمل مبدأ السببية في عقولنا؟ ولن نقبل وجود الكون بلا سبب؟ فنحن لا نتقبل فكرة سماع صوت قوي في البيت بلا سبب، فكيف بهذا الكون؟!...

والمخلوقات التي نراها حولنا فإنها تفرض السؤال ذاته .. مخلوقات لم تكن موجودة فوجدت.. بشر وأنهار وبحار وحيوانات.. كيف حدثت هذه المخلوقات؟ وكيف وجدت بعد أن لم تكن موجودة بصورتها الحالية؟

لا بد لذلك من سبب أخرجها من عدم الوجود إلى الوجود في عالمنا هذا..

إنه معنى عظيم... إن تأمُّلَ مسألة خلق المخلوقات المحدثة التي نراها كفيل بأن يهدي العقل والقلب إلى الخالق العظيم ...

إن انقلاب المواد وتحولها إلى مواد أخرى مختلفة تماما عن المادة الأولى هو من الأمور التي تثير تساؤلا عميقا.. كيف تنقلب تلك المواد إلى أشياء أخرى جديدة، وتذهب المادة الأولى فلا نعود نراها؟! تأمل هذا التحول العجيب الذي نراه حولنا، في الإنسان والحيوان والنبات ...

من منا يظن أن ماء مهينا سيتحول يوما ما إلى إنسان فيه عجائب من الإتقان ... إلى إنسان له كيان وفطرة وغرائز ..

إنه لم يكن شيئا يذكر، كان ماء مهينا، ثم تحول إلى بقعة من دم.. ثم صار الدم قطعة لحم صغيرة، ثم صار الإنسان لحما وعظما، صار له قلب وكبد وأعصاب، صار له عقل وكيان، فسبحان مَن ﴿خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[١] ﴿الَّذِيْ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِيْنٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاْءٍ مَهِين﴾[٢].

﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئا﴾[٣] ...

---

[١] الفرقان : ٥٤
[٢] السجدة : ٧
[٣] مريم : ٦٧

تذكر أيها الإنسان أنك لم تكن شيئا مذكورا، كنت ماء مهينا، فخلق الله ﷻ منه ذلك الخلق العجيب!

وهذه الحبة اليابسة الجافة، تخرج منها الشجرة التي تنبض بالحياة ... أين ذهبت تلك الحبة؟ وكيف صارت شجرة؟

كل هذا لا بد له من خالق هيأ الظروف والأسباب.

هذا إذا نظرنا إلى كل مخلوق بمفرده، فكيف إذا نظرنا نظرة عامة شاملة إلى المخلوقات، بما فيها من تنوع شديد، وتكامل عجيب... ماء ونار، وحر وبرد، ومرض وشفاء.

كل هذا لا بد له من فاعل قدير ذي صفات كاملة، أوجد هذا التكامل الذي لولاه لما استمرت الحياة.

إنها حقيقة عظيمة تأسر العقول والقلوب .. هذا ونحن لم نتأمل إلا مجرد مسألة الخلق، فكيف إذا علمنا ما في المخلوقات من إبداع ودقة وإتقان، قد لا تستوعبه عقول بعضنا مجرد استيعاب؟!

ولذلك ... إذا علمنا أن عقولنا وفطرتنا تفرض علينا أن لكل محدَث سببا، وعلمنا أن الكون والمخلوقات محدثة أي أنها لم تكن موجودة ثم وجدت، فهذا يعني: أنه لا بد لها من سبب أوجدها.

إنه الله ﷻ

لقد كانت المخلوقات التي نراها معدومة ثم وجدت ..

فهل أوجدها العدم؟ لا، فالعدم لا يوجد شيئا، وفاقد الشيء لا يعطيه.

هل أوجدت نفسها؟ كلا، كيف توجد نفسها وهي غير موجودة أصلا؟ أيتقدم الشيء على نفسه؟!

إذًا فقد أوجدها غيرها، ولا يمكن أن يكون هذا الغير مخلوقا، لأنه لو كان مخلوقا لسألنا: من الذي خلقه؟ فإذا أُجبنا سألنا مرة أخرى: من الذي خلقه؟ فيتسلسل الأمر بلا بداية ويستحيل وجود أي شيء، كما يستحيل تحرك القطار ذي العربات المترابطة بدون العربة الأولى، ولا يمكن أن يكون هذا الموجد هو المادة الجامدة الصماء.. كيف تعطي هذه المادة الحياةَ وهي غير حية؟ وكيف تعطي العلم وهي لا تتصف به؟ وهل لها حكمة وإرادة لتوجد هذا التنوع في المخلوقات؟

ولا يمكن أن يكون فعلا عشوائيا، فالفعل العشوائي في النهاية فعل، ولا بد له من فاعل! والعشوائية لا تأتي بفعل متقن محكم كما هو الحال في الكون.

لا بد لها من مُوجِد خالق يختلف عن طبيعة الخلق التي تتسم بالحدوث بعد العدم، لا بد أن يكون الخالق غير مسبوق بعدم ولا متأثرا بخالق آخر، ويوضّح ذلك مثال القطار ذي العربات الكثير المترابطة الذي ذكرناه، فلا يمكن أن تسير العربات بدون العربة الأولى، فبدونها لن يبدأ التأثير فيما بعدها، ولن يتحرك ما بعدها، وهكذا الوجود المفتقر لمن يوجده، لا يوجد إلا بموجد مستغن لا يحتاج لمن يوجده، فإذا لم يوجد الخالق الذي لم يُخلق، فلن نكون هنا !

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[١]، هذه الآية لا تدل فقط على لزوم وجود خالق، بل إنها تشير إلى كماله... إنه ليس مثلكم أيها البشر، إنه خالق عظيم، إنه الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

لقد هزت عظمة هذه الآية قلب جبير بن مطعم قبل أن يسلم، وذلك لما ذهب إلى النبي ﷺ في فداء أسرى بدر، دخل المسجد والنبي ﷺ يصلي المغرب بالناس، ويقرأ سورة الطور.. يقول جبير: سمعْتُ النبِي ﷺ يقرَأ في الْمغرب بالطورِ، فلما بلغ هذه الْآيَة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ

[١] الطور: ٣٥.

خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[١]، قَالَ: "كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ"[٢].

نعم، ولِمَ لا يطير -يا جبير-، فأنت أمام المعنى العظيم الذي صيغ في أحسن صياغة.

طريق الهداية

لقد سلك الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هذه الطريقة في مجادلة من حجد ربوبية الله تعالى، وادعاها لنفسه .. لقد سلكوا الطريقة العقلية في التدليل على ربوبية الله تعالى، وبالتالي استحقاقه للعبادة وحده.

ففرعون لما أنكر ربوبية الله تعالى أخبره موسى عليه الصلاة والسلام بدلائل عدة على الربوبية، فذكره بأن الله ﷻ أعرف من أن يعرف، وأنه الغني الذي تفتقر إليه كل المخلوقات: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[٣]، فإن كان لهم يقين بشيء فأول اليقين هو اليقين بهذا الرب، لأن تلك الآيات الكونية التي ذكرها لا يمكن معها جحد الخالق ﷻ، ولا يمكن للإنسان أن ينكر وجود الخالق إذا رجع إلى معارف العقل الضرورية: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤].

وكذلك النمرود لما اغتر بطول فترته في الملك ظن أنه لا إله غيره، وكأنه طلب الدليل على وجود إله غيره، قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٥]، أي: الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا

---

[١] الطور: ٣٥-٣٧.

[٢] صحيح البخاري (٤٨٥٤).

[٣] الشعراء: ٢٤.

[٤] الشعراء: ٢٨.

[٥] البقرة: ٢٥٨.

دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها موجد أوجدها.

ولقد أشار القرآن إلى هذا الدليل، وحثنا على التفكر في المخلوقات طلبا لليقين وزيادة الإيمان، وإقامة للحجة على وجوب عبادته وحده في مواضع كثيرة من كتابه، **ولنتأمل هذه الآيات :**

﴿أَمَّن خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنبَتنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهجَةٍ ما كانَ لَكُم أَن تُنبِتوا شَجَرَها أَإِلـٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَل هُم قَومٌ يَعدِلونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرضَ قَرارًا وَجَعَلَ خِلالَها أَنهارًا وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَينَ البَحرَينِ حاجِزًا أَإِلـٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَل أَكثَرُهُم لا يَعلَمونَ * أَمَّن يُجيبُ المُضطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكشِفُ السّوءَ وَيَجعَلُكُم خُلَفاءَ الأَرضِ أَإِلـٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَليلًا ما تَذَكَّرونَ * أَمَّن يَهديكُم في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحرِ وَمَن يُرسِلُ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ أَإِلـٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمّا يُشرِكونَ * أَمَّن يَبدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَن يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرضِ أَإِلـٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُل هاتوا بُرهانَكُم إِن كُنتُم صادِقينَ﴾[١].

مراجع استُفيد منها في المقال :

- براهين وجود الله في العقل والنفس والعلم للدكتور سامي عامري.
- ظاهرة نقد الدين للدكتور سلطان العميري.
- ثلاث رسائل في الإلحاد والعقل والإيمان للدكتور عبد الله الشهري.
- النبوات للإمام ابن تيمية رحمه الله.

[١] النمل: ٦٠-٦٤.

الكاتب : هادي صبري

مراجعة : طارق عنقاوي

الدليل الثاني من أدلة وجود الله ﷻ: دليل الإتقان والإحكام

تمهيـــد

تبين لنا أن مجرد وجود الشيء بعد أن لم يكن موجودا، تبين أنه دليل حتمي على وجود الخالق؛ وفي هذا الدليل سنتناول دليلًا آخر يزيد يقيننا بذلك؛ وهو التعقيد والإتقان الموجودان في المخلوقات، كما أن هذا الإتقان الموجود في المخلوقات يحمل معه شيئا عظيما آخر لإيماننا.. وهو الدلالة على كمال الخالق..

فتعال معنا!

لو كنت أمام طفل صغير جدا .. لا يغلب على ظنك أنه يُحسن الرسم، لو رأيته قد أتاك بصورة قد رسم فيها أحلامه البريئة .. رسم سهلا أخضر جميلا، يلعب فيه الأطفال بألعاب مختلفة ..

ماذا سوف تستنتج من هذا الموقف؟

من البدهي أن لهذه الصورة رساما..

وسوف تعلم يقينا كذلك أن هذا الطفل قد تعلّم الرسم، وأنه قصد رسم هذه اللوحة بما فيها من تفاصيل، لن يخطر ببالك أن هذه اللوحة كانت نتيجة لتمريره القلم على الورقة بشكل عشوائي، وبدون قصد ليرسم ما رسمه[١].

وكذلك إذا رأينا محركا معقدا، يحرق الوقود، ثم يحول الطاقة من شكل إلى آخر، فإننا سوف نكون على يقين قوي جدا من وجود صانع لهذا المحرك..

لكن هل يمكن أن يكون صانعه جاهلا بهذه الصناعة!؟

---

[١] انظر: محاضرة الداروينية عرض ونقد، عبد الله العجيري.

لا، إن مجرد رؤيتك للمحرك تعني لك أن صانعه عنده علم بالميكانيكا، والكهرباء، والتصميم، وكل ما يلزم لصناعة هذا المحرك.. وإلا لما استطاع صناعته، أو لصَنعه على نحو غير متقن.

مثل هذه الأمثلة البسيطة القريبة تجلي لنا نتيجة بدهية، وهي أن كل عاقل سليم الفطرة إذا تأمل ما في المخلوقات من إتقان وإبداع فإنه لا يجد مفرا من زيادة يقينه بوجود خالق لها؛ كما أنه سوف يعلم أن هذا الخالق لا بد أن يتصف بصفات الكمال، كالعلم والحكمة والإرادة.

إن هذا الدليل يجمع بشكل رائع بين البساطة والقوة، حتى أن كثيرا من الناس قد اهتدوا بعد التأمل فيه، ولا شك أن ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة توضح كيفية عمل القوانين الطبيعية، وتكشف عن الإعجاز في جسم الإنسان والإعجاز في كيفية عمل الأجهزة والأعضاء بداخله، وتُظهر خصائص الكائنات الحية وتنوعها وتكشف الحجاب عن الكثير من مظاهر الإتقان والضبط الدقيق في هذا الكون، قد أمد هذا البرهان بالكثير من الشواهد والأمثلة عليه.

لمحة

إذا كان يقيننا قويا جدا بوجود رسام للصورة وصانع ماهر للمحرك، فإننا إذا تأملنا في بعض المخلوقات، وتأملنا ما فيها من تعقيد وإتقان شديد جدا، فإن عقولنا سوف تضطر اضطرارا لإثبات خالق عليم حكيم ذي إرادة.

فتعال الآن لنقف على جزء صغير من شاطئ بحر لا ينتهي من الإتقان والإبداع،تعال لتعلم أن ما تراه من محركات وآلالات مدهشة معقدة ليست إلا دمية ساذجة أمام أصغر مخلوقات الله ﷻ... فقبل أن نطير معا إلى تأمل

الأفلاك والنجوم والكواكب.. قبل أن نغوص في البحار.. وقبل أن تتأمل الجبال والتلال والأشجار... :

١. **ارفع إصبعك الصغير أمام عينك**، إن فيه مئات الملايين من الخلايا، في كل خلية منها عجائب وأسرار.. لن يتسع المقام للوقوف إلا على طرف يسير من ذلك.. لكن لك أن تتأمل في قول لينوس باولنج -الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء-: "إن خلية حية واحدة من بدن الإنسان هي أشد تعقيدا من مدينة نيويورك"[١].

حسنًا، فلننتقل إلى داخل خلية واحدة من خلايا جسمك البالغ عددها ٣٧.٢ تريلون خلية تقريبًا ... هناك تقريبًا[٢] ١٠ تريليون منها تحمل نواة (جزء صغير داخل الخلية). في داخل نواة هذه الخلايا الجسميّة، يوجد ٢٣ زوجًا من الكروموسومات. بداخل هذه الكروموسومات خيط رفيع جدًا يسمّى – DNA شفرتك الوراثية، يحمل هذا الخيط معلومات عن صفاتك ووظائف أعضائك بشكل كامل. طول هذا الخيط: إذا فردنا الكروموسومات الموجودة في خلية واحدة ووصلناها ببعضها، سيبلغ طولها تقريبًا ٢ متر في المتوسط[3] ... تخيّل! خيط طوله ٢ متر يوجد في كل خلية من خلايا جسمك، ترى كيف سيكون ملفوفًا ومرتبًا لكي تَسَعَه خليةٌ لا تستطيع حتّى أن تراها بعينك المجردة؟! إذا وصلنا خيوط المادة الوراثية – DNA في خلايا جسمك كلّها، (أي: ٢ متر * ١٠ تريليون خلية)، سيكون الطول تقريبًا ٢٠ مليار كيلومتر، وهذا الرقم يساوي مسافة الرحلة التي تقطعها سفينة فضاء في رحلتها من الأرض إلى الشمس ٧٠

[1] Dave Hunt, In Defense of the Faith (Eugene: Harvest House Publishers, 1996), p.22.

[2] https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/23829164

[3] https://hypertextbook.com/facts/1998/StevenChen.shtml

مرّة ذهابًا وإيابًا على أقل التقديرات[١] ... تخيّل أن طول المادة الوراثية في جسمك كافية لتلفّ حول الشمس٤٥٧٧ مرّة![٢] [٣].

هذا ما يتعلق بطولها فقط، أما طريقة عملها، وكيفية قراءتها واستخراج المعلومات منها فعالم آخر! هذه الـ ٣٧.٢ ترليون خلية، بعضها مسؤول عن العظام، وبعضها مسؤول عن الأعصاب، أخرى مسؤولة عن الدم ... وهكذا، وكل واحدة منها تهتدي لما ينبغي أن تفعله! ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٤].

٢. **الزرافة !** الزرافة تحمل دماغها فوق عنق طويلة، وقد تصل المسافة بين قلبها وبين دماغها إلى ٣ أمتار، وحتى يتمكن قلبها من إيصال الدم إلى دماغها فإنه لا بد أن يكون قويا، ولذلك فقد يصل وزنه إلى ١١ كغم، بطول ٦٠ سم، وطول جدرانه ٧.٥ سم[٥]، إذًا فهو يضخ الدم بقوة شديدة بعكس الجاذبية نحو الدماغ . ولكن ماذا سيحدث لو خفضت الزرافة رأسها لتشرب مثلا، هل ستنفجر عروقها ودماغها بسبب هذه القوة؟! لا، فإن الشرايين التي توصل الدم إلى الدماغ تحتوي على صمامات تخفف من الضغط عند انحناء رأس الزرافة. كما أن هناك شبكة من الأوعية الدموية أسفل الدماغ تعمل كالإسفنج، فتمتص تلك القوة ثم تغذي الدم. كما أن الشريان الذي ينزل الدم

---

[1] https://hypertextbook.com/facts/1998/StevenChen.shtml
https://www.nature.com/scitable/topicpage/dna-packaging-nucleosomes-and-%20chromatin-310

[2] https://solarsystem.nasa.gov/solar-system/sun/by-the-numbers

[3] Biochemistry Dental Students, 75

[٤] الذاريات: ٢٠-٢١.

[5] Prothero, D. R.; Schoch, R. M. (2003). Horns, Tusks, and Flippers: The Evolution of Hoofed Mammals. Johns Hopkins University Press. pp. 67–72

من الدماغ إلى القلب فيه صمامات تمنع الدم من الرجوع إلى الدماغ عندما تخفض الزرافة رأسها[١]، **فسبحان مَن** ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[٢].

٣. **(بكتيريا الفلجلم)!** بكتيريا لها ذيل يدور كمحرك، وهذا المحرك مؤلف من أجزاء متعددة كالمجداف والدوار والبطانات والحلقة ومحور الدفع وغيرها، وهي متداخلة بشكل متناسق، ولو فقد منها جزء لما عمل هذا المحرك[٣]. في عمل كل عضو من هذه الأعضاء إبداع مذهل.. وما يذهل أكثر هو وجود هذا التناسق والترتيب والترابط في عمل هذه الأعضاء.

إن هذا التكامل في العمل موجود في الخلية، وفي داخل العضو الواحد، وفي داخل جسم الإنسان، وفي داخل جسم الحيوان كذلك.. إن عمل هذه الأعضاء بهذا الشكل المتكامل يعني أنها وُجدت دفعة واحدة ليحصل بينها الترابط وتعمل، وإلا لما استطاع المخلوق أن يبقى حيًّا، أو أن يبقى سليمًا[٤]، ليس هذا في داخل أجسام المخلوقات فحسب، بل في الطبيعة عمومًا، فالله ﷻ جعل لكل مخلوق وظيفة؛ فمفترس وضحية، وحيوانات يكثر عددها، وأخرى يقل عددها، حشرات قد نراها مزعجة فإذا بها ذات أهمية كبيرة لضمان غذائنا.. أمور لا نعلمها، وأمور نتعلمها.

٤. **تأمل في هذه الحادثة** لما نزل المهاجرون الأوروبيون أستراليا، لم يكن فيها من الثدييات المشيمية إلا كلب الدنجو البري، ولما كان هؤلاء المهاجرون قد نزحوا من أوروبا، فقد تذكروا ما كان يهيئه لهم صيد الأرانب من فرصة طيّبة لممارسة الصيد والرّياضة... في محاولة لتحسين الطبيعة في أستراليا استورد (توماس أوستين) في عام (١٨٥٩م) نحو اثني عشر زوجًا من الأرانب وأطلقها،

---

[1] Mitchell, G.; Skinner, J. D. (1993). "How giraffe adapt to their extraordinary shape".Transactions of the Royal Society of South Africa. 48 (2): 207–18

http://news.bbc.co.uk/earth/hi/earth_news/newsid_8368000/8368915.stm

[٢] السجدة: ٧.

[3] Darwin's Black Box, FREE PRESS – New York London Toronto Sydney, p. 2, 69

[4] Darwin's Black Box, FREE PRESS – New York London Toronto Sydney, p. 51.

ولم يكن لهذه الأرانب أعداء طبيعيون في أستراليا، ولذلك فقد تكاثرت بصورة مذهلة، وزاد عددها زيادة كبيرة فوق ما كان ينتظر، وكانت النتيجة سيئة للغاية؛ فقد أحدثت الأرانب أضرارًا بالغة بتلك البلاد حيث قضت على الحشائش والمراعي التي ترعاها الأغنام. وقد بُذلت محاولات عديدة للسيطرة على الأرانب، وبُنيت أسوار عبر القارة في كوينزلاند بلغ امتدادها ٧٠٠٠ ميل، ومع ذلك ثبت عدم فائدتها؛ فقد استطاعت الأرانب أن تتخطاها. ثم استخدم نوع من الطعم السام ولكن هذه المحاولة باءت هي الأخرى بالفشل.

ولم يمكن الوصول إلى حل إلا في السنوات الأخيرة، وكان ذلك باستخدام فيروس خاص يسبب مرضًا قتّالًا لهذه الأرانب هو مرض الحرض المخاطي. وقد لا يكون هذا هو الحل الأخير، فقد أخذنا نسمع أخيرًا عن ظهور أرانب حصينة لديها مقاومة كبيرة لهذا المرض في أستراليا ... ومع ذلك فقد أدى انخفاض عدد الأرانب هنالك إلى منافع جمّة، وتحوّلت مناطق البراري القاحلة والجبال المقفرة التي بقيت مجدبة عشرات السنين إلى مروج خُضر يافعة. وقد ترتّب على ذلك زيادة في الإيراد من صناعة الأغنام وحدها قدّرت في سنة ١٩٥٢-١٩٥٣ بما يبلغ ٨٤ مليون جنيه![1]

٥. وأما الكون وما فيه من أسرار وعجائب فآيات باهرة، ومشاهد آسرة،

ومن أهم المظاهر التي أبهرت العقول بإتقانها العجيب: قضية الثوابت الكونية، فالكون ضُبط بقوانين دقيقة ثابتة صارمة، تسير وفقها مجريات الكون؛ ليكون مناسبا للعيش والحياة فيه، ولو وقع أي تغير في تلك الثوابت -ولو كان ضئيلا- فإنه من المستحيل أن يكون على صورته التي هو عليها الآن[2]، ومن صور ذلك :

---

[1] الله يتجلى في عصر العلم، تحرير: جون كلوفرمونسيما، ٥٥.

[2] ظاهرة نقد الدين، د.سلطان العميري ج٢.

١- قوة الجاذبية، فهذا الثابت الكوني لايختلف عن غيره من مخلوقات الله، فهو مضبوط بشكل مذهل، إذ إنه لو كان مختلفًا بمقدر جزء من ٦٠٨١٠ لما كان لنا وجود!![١].

٢- موقع الأرض، فتفصل الأرض مسافة دقيقة عن الشمس، بحيث لو حصل تفاوت بسيط في هذا المدار المنتظم، فلن يبقى شيء على الأرض كما هو، لا الماء سيبقى كما هو، ولا المحيطات، ولا النبات، ولا البشر[٢].

٣- هذه الأرض يحيط بها غلاف غازي فيه الغازات اللازمة للحياة بنسب دقيقة لو تغيرت تغييرا طفيفا لفسدت الحياة، ويمتد هذا الغلاف حولها إلى ارتفاع يزيد عن ٥٠٠ ميل، ليحول دون وصول الشهب القاتلة، ويحفظ درجة حرارة الأرض، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات[٣].

وسبحان مَن قال في كتابه الكريم، وقال ﷻ: ﴿وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٤].

ومظاهر الإتقان والإحكام والضبط في الخلق كثيرة جدا، والمقصود هنا ذكر بعضها للتمثيل فقط.

هو الله!

والآن، وبعد هذه النماذج التي لا نستطيع وصفها إلا بأنها نزر يسير جدا جدا أمام ما علمه علماء الطبيعة من عجائب الخلق .. لا يمكن لإنسان يحترم عقله وفطرته إلا أن يقر بأمرين :

---

[١] شموع النهار، عبد الله العجيري ، دليل الإتقان.

[٢] التصميم العظيم، ستيفن هوكنج، ١٨١- ١٨٣.

[٣] الله يتجلى في عصر العلم، تحرير: جون كلوفرمونسيما، ١٢، ١٣.

[٤] الفرقان: ٢.

بوجود خالق لهذه المخلوقات.

وأن هذا الخالق متصف بصفات الكمال المطلق، الذي لا يدخله نقص بوجه من الوجوه.

الله الحي القيوم ..

فمن تأمل في هذا الخلق المتقن، علم يقينًا أن خالقه لا بد أن يكون متصفًا بالحياة الكاملة؛ فلو لم يكن حيًّا لما خَلَق، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[١]، ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

الله المتصف بالإرادة جل علاه ..

ولا يمكن أن يتم الخلق بدون إرادة؛ فغير المريد لا يقدر على أن يقوم بشيء له معنى، فضلا على أن يخلق مخلوقات متقنة يجعل لكل منها مهمة ووظيفة.

الله العليم ..

ولا بد أن يكون متصفا بكمال العلم؛ فالخلق، والخلق المتقن، لا يمكن أن يتم بدون علم كامل، فالجاهل لا يمكنه أن يصنع أبسط الأشياء.. فإذا لاحظنا دقة خلق الخالق علمنا دقة علمه، وأنه لا تخفى عليه خافية، ﴿وَأَسِرّوا قَولَكُم أَوِ اجهَروا بِهِ إِنَّهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ * أَلا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ﴾[٣].

---

[١] البقرة: ٢٥٥.

[٢] غافر: ٦٥.

[٣] الملك: ١٣.

الله القدير ..

كما أن الخالق لهذا الإتقان لا بد أن يتصف بالقدرة التامة، فهذا الكون يسير على سنن وقوانين دقيقة، غير فوضوية، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[١]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[٢].

الله الحكيم ..

ولا يمكن للخلق المتقن أن يتم بدون حكمة تامة بالغة، فغير الحكيم لا يمكنه وضع الشيء في موضعه المناسب، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[٣].

الله الرحيم الكريم الوهاب ..

وإذا تأملت في تسخير الأرض وتذليلها لمعيشتنا، وتأملت كيف أن الرزق والطعام يصل إلى أضعف المخلوقات، وإذا تأملت في إغاثة الله تعالى لعباده بإنزال المطر، علمت أن هذا الخالق رحيم رحمة وسعت كل شيء، كريم عظيم الكرم والجود، ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ

---

[١] الطلاق: ١٢.

[٢] الروم: ٥٤.

[٣] سبأ: ١.

[٤] الروم: ٥٠.

الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾[١].

الله السميع البصير ..

ومن لوزام ذلك الخلق المتقن أن يكون الخالق سميعا بصيرا، ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢].

الله ذو الكمال والجلال ..

وآثار الكمال الموجودة في الخلق، تدل على كمال الخالق، لأن معطي الكمال أولى به، فخالق الأسماع والأبصار والنطق، ونحو ذلك من الصفات الكاملة، هو أحق بهذا الكمال على وجه لا يماثله فيه أحد من خلقه؛ فالفطرة والبديهة تقتضي أن يكون الخالق المستغني عن الخلق أولى بالكمال من المخلوق المحتاج الفقير إلى خالقه، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣]، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٤].[٥]

وهكذا يدلنا الخلق المتقن على الكمال المطلق للخالق، ثم يدلنا على بعض الصفات التي يمكن لعقولنا إدراك اتصافه ﷻ بها من خلال التأمل.

---

[١] سبأ: ١ - ٢.

[٢] الشورى: ١١.

[٣] الروم: ٢٧.

[٤] النحل: ١٧.

[٥] انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (٤/ ١٥٤)، دار طيبة، الأدلة العقلية النقلية، د. سعود العريفي، ٣٢٣، ٣٣٦.

نتيجة واحدة فقط !

هل تذكر ذلك الطفل الرسام؟ لقد كان بعيدا جدا جدا بالنسبة لك أن يكون قد وصل إلى تلك الرسمة عن طريق تحريكه القلم بشكل عشوائي على الورقة ..

لو أنك طلبت منه أن يعيد رسم تلك الصورة أمامك ففعل، فهل سيزداد استبعادك للأمر؟ بالتأكيد. ولو رسمها مرة ثالثة؟ سيزداد أكثر وأكثر.

وهكذا كلما تكرر الإبداع وكثر، وكلما اشتد الإتقان وعظم، كلما ازداد العقل والقلب يقينا بالإيمان بأن لهذا الكون خالقا عالما حكيما مريدا، كامل الصفات ..

- **عقولنا لا تقضي إلا بهذه النتيجة.**

فإذا تأملت ما سبق علمت يقينا أن الإيمان بالخالق المتصف بالكمال المطلق هو ما يحصل به قناعة العقل، واطمئنان القلب، واستقرار النفس.

يقول ابن تيمية -رحمه الله-[١]: "إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك، واعتبرتها بفكرك، وجدته كالبيت المبني المُعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه ساكنه من آلة وعتاد، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مبسوطة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وضروب النبات مهيأة للمطاعم والملابس والمآرب، وصنوف الحيوان مسخرة للمراكب، مستعملة في المرافق، والإنسان كالمُمَلّك البيت، المخول ما فيه. وفي هذا كله دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام وأن له صانعًا حكيمًا تام القدرة بالغ الحكمة".

---

[١] ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية، (١/ ٥٠٦).

أيقظ قلبك!

إن هذه المخلوقات تدلنا وتهدينا إلى العلم بخالقنا وبكماله، فتبارك الله الذي جعل سبيل الوصول إليه سهلا ميسورا .. هي أمور بين يديك وفي داخلك وفي نفسك، لا يغفل عنها إلا عقل عليه غشاوة، أو قلب علَته القسوة، أو نفس استولى عليها الهوى، ولذلك فقد وجه الله ﷻ عباده إلى إعمال الفكر في هذه المخلوقات، فإن كان هذا العبد حائرا زالت حيرته، وإن كان قلبه قاسيا زالت قسوته، وإن كان كافرا هُدي قلبه، وإن كان مؤمنا زاد إيمانه.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[١] ، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾[٢].

⇦ وفي القرآن آيات كثيرة تستعمل الظواهر الكونية كدليل على عظمة الرب تعالى وكماله واستحقاقه وحده للربوبية والألوهية، وهي تتضمن استثارة المكون الفطري في الإنسان، والذي يدعوه إلى نسبة مظاهر الإتقان إلى رب حكيم عليم، فعّال لما يريد، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وإلى أن يتوجه بالعبادة لهذا الخالق العظيم وحده لاشريك.

---

[١] الأنبياء: ٣٠ – ٣٣.

[٢] آل عمران: ١٩٠ – ١٩١.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] .

فانظر كيف لفت النظر إلى بعض الظواهر التي نراها بكثرة، ولكن غفلت قلوبنا عما فيها من إبداع كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٢] .

⇦ إن مجرد التأمل في خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر، وإنبات النباتات وتنوعها = كفيل بعمارة قلبك بالإيمان، فكيف إذا وجهت النظر، وتأملت في الظواهر الكونية بالغة الإتقان، والتي قد يغفل عنها كثير منا! ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٥]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[٦] .

⇦ وكم في القرآن من ذكر لهذه المخلوقات التي نراها حولنا، وهي من أعظم الأدلة على وجوده وكماله سبحانه واستحقاقه للألوهية وحده لاشريك له، فذكر الشمس والقمر، والليل والنهار، وإنزال المطر وإخراج النبات بسببه،

---

[١] النمل: ٦٠ – ٦١.

[٢] يوسف: ١٠٥.

[٣] الرعد: ٢.

[٤] الأعراف: ١٨٥.

[٥] ق: ٦.

[٦] الملك: ٣.

وذكر الرعد والبرق، والسحاب والنجوم، وتسخير الرياح لذلك، وتسخيرها لسير السفن في البحر، وذكر خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وحثنا على التفكر في الزواج، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وجعْلِ الليل سكنا لنا، وذكر المراحل التي يمر الإنسان بها في حياته، وتفضيل بعض الناس على بعضهم في الرزق، وذكر النحل والإبل والجبال، وغير ذلك ..

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1] **سبحانه ..**

مراجع استُفيد منها في المقال :

- محاضرة الداروينية عرض ونقد، لـ/ عبد الله العجيري.
- الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد للدكتور سعود العريفي.

[1] الفرقان: ٢.

الكاتب : طارق عنقاوي
مراجعة : هادي صبري - ريهام سامح

الدليل الثالث من أدلة وجود الله ﷻ: دليل الحياة

مدخل

تأمل فيما حولك من مظاهر الحياة، في الأشجار الخضراء اليانعة.. تلك الطيور التي تبسط أجنحتها وتطير في الهواء.. في الحيوانات التي تغدو وتروح تبتغي من رزق الله...

نحن كبشر نجد من أنفسنا تفريقا واضحًا بين الحياة وضدها، فنبتهج بالحياة ونحزن للموت، ولو شهدنا أي ميت من إنسان أو حيوان، ثم قيل لنا أن هذا الميت مثل الحي لاستنكرنا أعظم الاستنكار، بل لو قيل لنا أن هذه الجثة ستقوم وتتحرك لاستنكرنا ذلك، فضلا عن أن يقال لنا أنّ جمادًا ستنبعث فيه الحياة تلقائيًا، وصدق تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾[1]..

فنحن نعلم أنه ليس من سنن الحياة أن تعود الحياة في الدنيا لمن مات موتا قطعيا، ومن باب أولى أنّ الحياة لا يمكن أن تأتي ابتداءً من مصدر لا حياة فيه.. ويستحيل أن تكون المادة غير الحية بمجردها مصدرًا مُنشئًا للحياة.. فلا بد أن يكون مصدر الحياة متصفا بكمال الحياة والقدرة والعلم والإرادة، وفي هذا يعظ تعالى عباده بما يعلمونه من افتقار حدوث الحياة إلى فِعل الإحياء فيقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[2].. الآية.

هكذا نعلم تميّز الحياة وعظمتها بفطرتنا، ونهتدي من ذلك إلى أنّ معطي هذه الحياة عليم خبير عظيم، ولا نحتاج لإطالة الفكر لإدراك الفرق بين ما فيه حياة وما لا حياة فيه، وأنّ الحياة بخصائصها وطبيعتها لا يمكن أن تأتي من مجرد المادة المحسوسة فقط .. ففاقد الشيء لا يعطيه، ولا يمكن أن يهب العِلمَ

---

[1] فاطر: ٢٢.

[2] البقرة: ٢٨.

جاهلٌ، ولا يمكن أن يُهدي المال مُفلسٌ، ومُحال أن تأتي الحياة مما لا حياة فيه! فكل هذا مدرك جليّ بالفطرة ..

غير أنّنا لو تفكّرنا وتعمّقنا في خصائص الحياة سنجد مزيدًا من العجب، وسنرى آيات مبهرة تأخذ بالألباب..

فتعال بنا نزيد الأمر تفصيلًا وتأمّلًا ..

لنتأمل:

- **العمل البنائي المحافظ على الوجود للكائن ونوعه:**

تتضمّن الكائنات الحية عملًا بنائيًّا للخلايا ومكونات الجسد، وهو عمل تتكامل فيه مختلف الأجزاء، لتتفاعل مع البيئة الخارجية وتحصّل الغذاء ثمّ تنتج الطاقة وتتخلص من الفضلات، وتنمو وتتحرّك وتتكاثر، وغير ذلك من العمليات الحيوية التكاملية التي تمثّل حركة بنائية مستمرة تقاوم التفكّك، وبمجرد موت الكائن الحي وتوقّف هذا العمل الدؤوب يدبّ الانحلال في الكائن الحيّ، ويبدأ بالتفكّك ومشابهة المواد غير الحيّة!

إنّ ثمّة اختلافًا واضحًا بين بيئة الحياة وغيرها، فعند حضور أبسط صور الحياة نجد أنّها ذات تنظيم عال للمواد الكيميائية وتخزين للمعلومات اللازمة لبناء الكائن الحيّ[١]، وهو اختلاف عجيب في واقعه المشهود، عجيب أيضًا في بدايته حين نتفكّر في ظهور الحياة بنظامها البنائي المعقّد في محيط يفتقر لهذه السمة![٢].

---

[١] انظر: توقيع في الخلية، ٢٢٩.

[٢] انظر: براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم، ٥٨٦.

فما الذي يجعل الكائنات الحيّة مغايرة لما حولها من وجود مادي محسوس؟ بل ما الذي يجعل بعض الكائنات الحيّة تنتقل من نظام إلى نظام أعلى كتحوّل النطفة الأمشاج إلى إنسان؟

إنّ فيها شيئًا فريدًا لا ينتمي لعالم المادة المقابل لها، شيئًا يوجّه نظامها ونموّها ويحوّل الطاقة إلى أداة إيجابية للبناء[١]، وهذا الشيء نرى آثاره أمامنا بل في أنفسنا، ونرى آثار افتقاده في الجمادات أو فقده بعد وجوده في الكائنات التي تموت.

لنتأمل:

- الحمض النووي:

أعجوبة المعلومات ونظامها ..

باكتشافات علم الوراثة واكتشاف الـ (DNA الدي إن أيه أو الدنا) الذي يحتوي على المعلومات الخاصة بالكائن الحي وصفاته، ثبت أنّ الحياة ليست مجرد مادة وطاقة، بل هي أيضًا مكونة من معلومات .

⇦ ولتقريب الصورة للأذهان:

يُمكن تشبيه الدنا بمكتبة تحوي كتبًا فيها كافة المعلومات والتفاصيل التي تخص الكائن الحي، سواء كانت صفاته الوراثية كلون العين والبشرة والشعر، أو كانت التعليمات الخاصة ببناء جزيئات البروتين وإنجاز الوظائف الحيوية في الخليّة.

هذه المعلومات تم تخزينها ضمن الدنا الملفوف على شكل سلسلة حلزونية مزدوجة، تم ضغطها في حجم صغير جدا جدا لا يُرى بالعين المجردة، وتشفيرها

[١] انظر: براهين وجود الله ، ٥٨٧.

بأبجدية كيميائية خاصة، فكما نرى أن اللغات تتشكل من أحرف محدودة العدد، تترتب بشكل مُعين لتؤلف آلاف الكلمات، وتتشكل من الكلمات جمل كثيرة متنوعة، فإن أساس لغة الحامض النووي أربع جزيئات كيميائية تُسمى (النوكليوتيدات)، تترتب على طول الدنا بتسلسلات معينة لتخزّن المعلومات[١].

نظام لمعالجة المعلومات ونقلها وترجمتها ..

الجسم يحتاج للبروتينات لتستمر عملياته الحيويّة، وهذه البروتينات تتكون من أحماض أمينيّة.

وهنا نتساءل ! كيف تقرأ الخليّة المعلومات المشفرة على شريط الدنا، ليحصل بناءً على ذلك بناء الأحماض الأمينيّة ؟

يحصل ذلك عبر عملية التعبير الجيني، وهي عملية في غاية التعقيد، يعتبر الدنا فيها مصدر التعليمات وخطة العمل .

تصدر التعليمات عن طريق نسخ المعلومات المشفرة على الدنا، حيث تقوم جسيمات قارئة بفكّ خيطي الدنا المتوازيين وكشف تسلسل النوكليوتيدات من أجل قراءتها ونسخها عبر صناعة شريط متناسب يسمى بالرنا المرسال[٢].

يحمل الرنا المرسال المعلومات إلى الريبوسوم، وهو أشبه بآلة ترجمة وتصنيع، حيث يقوم بترجمة المعلومات التي يحملها شريط الرنا المرسال، ويقوم بناء على تلك المعلومات بتوجيه ارتباط الأحماض الأمينية وفق الترتيب المناسب لتصنيع المطلوب، فترتبط الأحماض معا في سلاسل وتوليفات كثيرة متنوعة تكون البروتينات المناسبة التي تنجز معظم الوظائف الحيوية في الخليّة.

---

[١] انظر:توقيع في الخلية، ٢٤-٢٥, ١٢٨-١٢٩.

[٢] انظر: توقيع في الخلية،١٢٨-١٢٩.

⇦ إنّ الذي أمامنا إذًا عملية عجيبة تتضمن أجزاءً تقرأ الأحرف وتفك الشيفرات، ثم يقع التنسيق والتعاون بينها بدقّة لتنجز المطلوب بالضبط. وصدق تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١] .

⇦ وهي إذًا ليست معلومات مشفّرة فحسب، بل هناك نظام بديع لمعالجة المعلومات، يقول د. ستيفن ماير في كتابه "توقيع في الخلية": ".. تمامًا كما تكون المعلومات الرقمية المحفوظة على قرص عديمة النفع دون أداة تقرؤ القرص، كذلك أيضا تكون المعلومات على الدنا عديمة النفع دون النظام الخلوي لمعالجة المعلومات"[٢].

والآن بعد هذا الشرح المبسط جدًا، ترى ما الدلالات التي رفع الستار عنها اكتشاف الحمض النووي وطريقة عمله !؟ لنقف مع بعض منها:

- الدلالة الأولى: "الفارق المذهل !":

إنّ نظام نقل وتشفير المعلومات هذا ليس من سمات المادة غير الحية، بل هو من خواص الأنظمة الحيّة ويعدّ مركزيًا فيها، بل حتى في الكائنات الحيّة وحيدة الخليّة، فأبسط بناء للحياة يتطلب في المقام الأول وجود تعليمات التجميع[٣]، ولا يوجد في أي مكان من عالم الطبيعة غير الحيّة تسلسلات كهذه تحمل معلومات نوعية .

وهذا يدل على أنّ الحياة شيء متميّز فريد لا يمكن أن يأتي من مجرد المادة فقط، ولذلك ذكره القرآن من الآيات، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[٤]، فخلق الحياة يستلزم خالقا يتصف

---

[١] طه: ٥٠.

[٢] انظر: توقيع في الخلية، ١٧٩.

[٣] انظر: توقيع في الخلية، ٢٥.

[٤] الروم: ٢٠.

بالعلم والقدرة، أبدع الكائنات الحيّة وميّزها وجاء بهذه المعلومات ونظامها المتكامل إلى عالمنا بعد أن لم تكن.

- الدلالة الثانية: طبيعة المعلومات تثير العجب !

"المعلومة لا توجد إلا من فاعل يتصف بالعلم والإرادة .."

إنّ طبيعة المعلومات نفسها تثير العجب! فالمادة المكتوبة على شكل أحرف كيميائية في المادة الوراثية ترمز لمعلومات، كما أن الأحرف المكتوبة بالحبر أو الرموز الرقمية في الحاسب ترمز لمعلومات، لكن المعلومة ذاتها ليست الشيء المادي الذي رمز لها، بل هي معنى يُدرك، ليس له كتلة ولا طول ولا عرض، وفهمنا لها يعتمد على طبيعة حيوية غير مادية وهي الإدراك والفكر والوعي، وما نميزه كمعلومات يعكس دائمًا نشاطًا مسبقًا لوعي الأشخاص وذكائهم[١]، ويستحيل أن توجد معلومات نوعية ولا أنظمة معالجة للمعلومات المعقدة المتكاملة إلاّ بوعي، وهذه حقيقة بدهية تظهر في تفوّق عقولنا على المادة، وضرورة وجود العلم والقدرة والإرادة لكي يتم ترتيب المادة في بنى مفيدة للحياة[٢].

واسأل نفسك هنا ليتضح لك عظم هذا الدليل:

هل إذا وجدت كتابا تحمل صفحاته كل المعلومات عنك بما في ذلك جميع صفاتك! كلونك وطولك وعينك وتقبلك لبعض الأمراض الوراثية.. وغير ذلك.. هل ستشك لحظة أنّه كُتب بلا علم وإرادة وقدرة! أو أن جمادا كتب ما فيه من معلومات!

هذا بالطبع مُحال!

---

[١] انظر: توقيع في الخلية،٢٨-٣٠ ، براهين وجود الله ،٥٦٩.

[٢] انظر: توقيع في الخلية، ٣١، ٤٣٨ ، براهين وجود الله ٥٦٩ وما بعدها.

بل ستتيقن أن وراءه حيًّا عالمًا بك!
فكيف بما هو أعظم من ذلك!؟

فإذًا هذا يبرهن أيضًا حتمية وجود خالق عظيم يتصف بالعلم والقدرة والإرادة، منه جاءت هذه المعلومات، فمجرد وجود معلومات تخص كل كائن حي في قلب كل خلية من خلايا جسده دلالة مبهرة عليه سبحانه. وصدق الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[١].

- الدلالة الثالثة : "ترتيب مسبق مقصود !":

لنتأمّل بعمق في بعض الموجودات التي ألفناها مثل الهاتف الجوّال، سنجد أنّ الكهرباء المتدفقة فيه تتبع قوانين الكهرومغناطيسية، ومع ذلك لا تنتج بنية الهاتف النوعية عن هذه القوانين أو غيرها من القوانين الفيزيائية والكيميائية، فالقانون لا يصنع الآلة ولا يحدد كيفية ترتيب أجزائها وتجميعها، فذلك الترتيب هو عمل المصمم، فهو ما يحدد مكان تدفق الكهرباء في أي آلة .

وهذا ما ينطبق على أنظمة الاتصالات الموجودة في الكائنات الحيّة، فقوانين الصوتيات لا تحدد أي الأصوات المنقولة سيتكلم بها صاحب اللغة، كما لا تحدّد خصائص الحبر الكيميائية ترتيب الأحرف في ورقة مطبوعة، وإنما تسمح هذه القوانين بمجال واسع من التسلسلات الممكنة، ويأتي دور التصميم والفعل الواعي في تحديدها.

ووفق المبدأ نفسه نجد الحال في الدنا، إذ لا توجد خصائص كيميائية أو فيزيائية تحدد تسلسل وارتباط وحدات بناء الدنا الأربعة (النوكليوتيدات) وتجعلها ذاتية التنظيم[٢]، بل تسمح كيمياء الدنا بارتباط أيٍّ من وحدات بناء الدنا الأربعة بأي موضع أو آخر من هيكل الدنا بنفس القدر من السهولة، كما

---

[١] الذاريات: ٢١.

[٢] انظر: توقيع في الخلية،٣٢٣-٢٣٤.

تسمح خصائص الحبر الكيميائية بأي ترتيب للأحرف في الورقة، وفي الحالتين يحدّد الترتيب الفعل الواعي الناتج عن إرادة وعلم، ليحمل المعلومات والمعاني المطلوبة، وفي حالة الدنا يدلّ غنى التسلسلات بالمعلومات النوعية المشفرة أنّها حتمًا من خالق حكيم عليم خبير[١].

- الدلالة الرابعة: "دلالة ضرورة التكامل":

ما يصفه علماء البيولوجيا هنا هو نظام محكم متكامل يوظّف أجزاء متعددة ضرورية معا، فهناك احتياج متزامن لكل الأجزاء معًا، فالبروتينات – على سبيل المثال – تعتمد في تشكُّلها على معلومات الدنا، ولكنَّ الدنا لا يمكن أن يتشكَّل دون بروتين موجود قبله[٢]، مما يؤكد أن هذا النظام لا يمكن أن يبدأ إلا بكليته وتكامل أجزائه، فهو نظام وجد بكليّته وتعقيده وإحكامه من البداية[٣]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٤].

يقول ميلر وزميله لفين: "كل الخلايا الحية محكومة بالمعلومات المختزنة في الدنا الذي يتحول إلى رنا ثم يتحول إلى بروتين، وهو نظام في غاية التعقيد، وكل من هذه الجزيئات الثلاثة يحتاج الاثنين الآخرين، إما ليحفظ له تماسكه أو ليساعده على العمل، فالدنا مثلا يحمل المعلومات ولكنه لا يستطيع أن يفعل استخدامها، ولا حتى أن يستنسخ نفسه دون مساعدة الرنا والبروتين"[٥].

وهذا كلّه إذا أردنا أن نركّز على داخل الخليّة، أمّا إذا أردنا أن نفكّر في نشأة بناء الخلية ذاتها، فكما يقول ماير: "..بناء خلية وظيفية.. سيحتاج أكثر من مجرد المعلومات الجينية التي توجه الاصطناع البروتيني؛ إذ سيحتاج أيضًا -

---

[١] انظر: توقيع في الخلية،٣١٩-٣٢١.

[٢] انظر: The Neck of the Giraffe , p66، نقلا عن كتاب: الحياة كيف وصلت إلى هنا، ٣٨ .

[٣] انظر: توقيع في الخلية،١٥٣-١٥٤، ١٨٠-١٨٢؛ براهين وجود الله، ٥٩٦.

[٤] المؤمنون: ١٤.

[٥] انظر: العلم ووجود، ٢٥١ .

على الأقل- إلى مجموعة بروتينات وجزيئات RNA موجودة مسبقًا.."[١]، وسيحتاج هذا أيضًا إلى طاقة ليمكن بناء النظام الخلوي، وهذه الطاقة تنتج عن الميتوكندريا والتي هي بدورها بروتينات تحتاج في بنائها إلى الدنا، ويضاف لذلك غشاء من نوع خاص لحماية الخلية والتفاعلات الكيميائية التي تحصل فيها، وهو يعتمد على بروتينات وأنزيمات وجزيئات خلوية، وكل ذلك يعيدنا لنفس النقطة، وهي الحاجة لوجود نظام متكامل توجد أجزاؤه معا في تكامل منظّم هادف[٢].

وقد قدّر بعض العلماء أنّ الحد الأدنى من الجينات المطلوبة لحياة خليّة مستقلة عن غيرها وقادرة على النمو السليم هو ٤٧٣ جينًا، أي أكثر من نصف مليون حرف نيكلوتيدي بترتيب مخصوص! وهناك تقديرات أعلى[٣].

فسبحان الذي ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾[٤].

- الدلالة الخامسة: "ما تحمله الخلية من عمل غائي منسّق دقيق":

والعجب يزداد كذلك إذا تأمّلنا في طريقة تفاعل مكونات الخلية مع بعضها في أعمالها التكامليّة الغائية الدقيقة ..

فإذا أخذنا مثلًا عمليات مراجعة النَسخ في الحمض النووي الصبغي، نجد أنّها تتحرك نحو غاية محدّدة، تقوم على رصد الخطأ وإصلاحه وطلب الصورة النموذجية للبناء العضوي.

ويزداد العجب عندما ندرك أنّ بنيان الحمض النووي الصبغيّ عرضة للفساد السريع بما يصيبه من أعطاب مهلكة، ولكن ثمّة آليات كثيرة متنوعة وذكيّة تقوم بالإصلاح، وتتضمّن آليات تدقيق متعددة المستويات، تتعرّف على

---

[١] انظر: توقيع في الخلية، ٢٧١.

[٢] انظر: توقيع في الخلية، ٢٧١-٢٧٢.

[٣] انظر: براهين وجود الله ٥٩١. وقد نقل المعلومة عن بحث منشور في مجلة ساينس في الهامش ٢ من الموضع.

[٤] السجدة: ٧.

الأعطاب التي تحدث خلال تضاعف الحمض النووي وتُلغيها بدقّة بالغة، ويتضمّن ذلك أنزيمات تقوم بقطع جزءٍ من شريط الحمض النووي الصبغي المعطوب، وإزالته وتبديله بآخر صحيح[١].

بل إنّ الأبحاث تكشف عن عمليات عجيبة للاستدراك والتوجيه، فالبروتين إذا أصيب بعطب ينحلّ ليظهر حمضه الأميني من داخله، ثمّ يتعرّف أحد الأنزيمات على هذا الحمض، فيضع في البروتين جزيئًا بروتينيًّا صغيرًا كعلامة تبيّن حاله للخليّة ليتمّ التخلّص منه بعد ذلك![٢].

إنّ هذا العمل الغائي وما فيه من مظاهر تكامل وتنسيق دقيق يظهر فارقًا عظيمًا تختصّ به الكائنات الحيّة في أدقّ مكوناتها الخلوية، عن تلك الموجودات الماديّة المحسوسة التي تفتقد لهذه الخواص، فلا يمكن أن تنشأ عن مجردّها، وهو ما يحتّم كذلك خالقًا حكيمًا متصفًا بالحياة والعلم والإرادة والقدرة أبدع وأتقن، وأخضع كل شيء لعظمته وقدرته .

وليس هذا كلّ شيء !

بدأ علماء البيولوجيا مؤخرًا في استيعاب أنّ المعلومات الحيويّة متعددة الأبعاد بشكل عميق جدًا وتتحرك في جميع الاتجاهات من خلال شبكة اتصالات واسعة النطاق، وأنّ الطبقات المختلفة للمعلومات لا تتجاوب فقط مع المحيط الخلوي، بل تتداخل بقوة مع البيئة الخارجية كذلك، وأنّ المعلومات الحيويّة ليست مقصورة على الدنا وتسلسلاته وشيفرته فقط، بل هناك شبكة اتصالات وتبادل معلومات واسعة بين أجزاء متنوعة في الخلية، إضافة للاتصالات بين الخلايا والأنسجة والأعضاء المختلفة، هذا وإدراكنا

---

[١] انظر: براهين وجود الله ٦٠٥.

[٢] انظر: براهين وجود الله ٦٠٨.

لأعجوبة المعلومات لا يزال يتسع! وصدق تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١].

ثم إنّ لنا حديثًا متصلًا أيضًا بخصائص أخرى لا تنتمي لعالم المادة غير الحية، مثل الوعي والإرادة الحرة والقيم ونحو ذلك مما تتميز به حياتنا وذواتنا، ولا شك أنّ هذه الخصائص ممّا يدخل في الاستدلال بالحياة، ولكنّها تستدعي وقفات خاصّة نتأمّل فيها عجيب صنع الله تعالى، وذلك في مقالات قادمة إن شاء الله.

وفي الختام:

والخلاصة مما سبق أنّ الحياة دليل مبهر على الخالق وكماله سبحانه، فالإنسان يدرك بفطرته أنّ الحياة لا يمكن أن تأتي من مصدر لا حياة فيه، ويدرك بالتفكّر وجوهًا عديدة لدلالة الحياة على الخالق سبحانه، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٢].

ويمكن أن نلخّص بعض ذلك كما يلي:

- أنّ الحياة تتضمّن نظامًا بنائيًا تكامليًا لغاية الحفاظ على النفس والنوع، وهذا العمل البنائي التكاملي المقاوم للتفكّك لا يوجد عند غياب الحياة، ويكشف عن تميّز الحياة واستحالة مجيئها من مجرد المادة المحسوسة فقط.

---

[١] الإسراء: ٨٥.

[٢] فصلت: ٥٣.

- أنّ المكونات المادية غير الحيّة تفتقد المعلومات التي تنظّم العمل البنائي الداخلي للكائنات الحية، وتفتقد نظام معالجتها، فلا يمكن أن تكون مصدرًا لها، ولا يمكن أن يكون مصدر المعلومات إلاّ من يعلم معناها ويريد إيصال مضامينها من خلال تسلسلات رموزها، ومن المستحيل وجود المعلومة بدون ترتيب واعٍ لتسلسل ما يرمز لها، والرموز الكيميائية كذلك لا يمكن أن تفيد المعلومة إلاّ إذا اختير لها بقصد وعلم تسلسلات معينة من بين احتمالات التسلسل الكثيرة الممكنة وفق القوانين الطبيعية.

- لا يمكن أن تنشأ الحياة إلاّ كنظام متكامل مع بعضه من البداية، وهذا ظاهر من افتقار كل مكون إلى غيره بطريقة تجعل من المستحيل وجود البعض وبقائه دون البعض الذي يتكامل معه، مع وجود الشيفرة وعمليات الترجمة التي تحقق التواصل وتنسّق العمل البنائي المتواصل.

- في عمل مكونات الخلية غائيّةً وتكامل وتنسيق دقيق، وتجاوب مع الأحداث وتواصل وتفاعل مع المحيط الداخلي والبيئة، وذلك لا يمتّ بصلة لغير الأحياء، ويقال مثل ذلك في الوعي والإرادة الحرّة وغيرها من سمات غير مادية يأتي الكلام فيها في مقالات قادمة إن شاء الله.

وهذا كلّه يحتّم أنّ وجود الحياة وسط البيئة المادية غير الحيّة كان بفاعل خارج عنها يتصف بكمال العلم والحكمة والقدرة والإرادة، فهي تفتقر للخالق الحيّ الذي أنشأها وأعطاها حياتها وهداها لقوامها وميّزها بقدرته وعلمه وحكمته، وأمدّها بهذه القدرات والمعلومات والنظم الدقيقة المتكاملة، فهي لا شكّ من صنع العليم الحكيم العظيم القدير سبحانه، وهذا كلّه يدفع العاقل للسعي لتحقيق الغاية التي خلق بهذه القدرات من أجلها، كما قال تعالى: ﴿ مَّن

كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[1].

مراجع استُفيد منها في المقال :

- توقيع في الخليّة لـ/ ستيفن ماير.
- براهين وجود الله في العقل والنفس والعلم للدكتور سامي عامري.

[1] الإسراء: ١٨-١٩.

الكاتب : هادي صبري - طارق عنقاوي
مراجعة: ريهام سامح - سمر لطفي

الدليل الرابع من أدلة وجود الله ﷻ: دليل الوعي

مدخل

وأنت تقرأ هذه الأسطر تعيش تجربة وعي بذاتك وبما تقرأ، تنتقل بين الكلمات والجمل فترتسم في وعيك المعاني وتثور لديك الأحاسيس، في مشهد يتكرر في كل أنشطتك اليومية دون أن تفكّر في دلالاته، ربّما لأنّك تعوّدت ذلك، وحتّى لو مررت بتجربة تقرّب لك التأمّل في معنى امتلاك هذه التجربة وفقدانها، مثل الإغماء العميق أثناء تخدير لعملية مثلًا، فإنّ هذا الموقف قد يمرّ عليك دون أن تفكّر في دلالاته، رغم أنّنا نعيش حالة يومية قد تقرّب لنا ذلك، حين ينام أحدنا... وفجأة يستيقظ ويزيد إحساسه بذاته.. يستجمع مشاعره.. يعود لوعيه الكامل..

هذه الحالة من اليقظة التي نعود لها بعد الإغماء أو النوم يمكن أن تقرب لنا المراد بـ"الوعي"، إنها مجموعة كبيرة من المدركات المتداخلة والمشاعر، تحسّ بها أنّك أنت أنت! وتعيش بها عالمك الخاص المتميّز عن الآخرين، بذاتك المتميّزة به عنهم.. مشاعر كثيرة نشعر بها..

منها شعورك بعدما عدت من سفر طويل، فرأيت أبناءك يطيرون نحوك كالعصافير...

ومنها شعورك عند تعرضك لخطر مفاجئ، فتتقي بيدك أو تبتعد بجسمك بشكل سريع..

فرح وحزن، وراحة ومشقة، وأحلام وخيالات تتعلق بالمستقبل.. بل فرح بطعام مفضل أو نوم مؤجل !

كل هذه مشاعر وتجارب داخلية، قد تظهر آثارها على وجوهنا ضحكا وبكاء، وعلى أطرافنا حركة أو سكونا.. ولكن حقيقة هذه المشاعر تبقى أمرا داخليا، تحس به أنت وحدك، ولا يمكن للآخرين أن يشعروا بنفس إحساسك..

ولن تستطيع إخبار الناس بكيف هو حال تلك المشاعر في داخلك، مهما كنت فصيحا بليغا!

بل إنّك لا تستطيع أن تعيش تجربة الوعي تلك بمجرد نقل خبر لك عن شيء لم تعايشه، فلو أنّ إنسانا عاش في غرفة ليس فيها إلا لونان: الأسود والأبيض، وقد امتلك كل العلوم الفيزيائية وتعلمها تعلما تاما، وتعلم أن هناك لونا اسمه اللون الأحمر، فإنه لن يعرف كيف يكون شعوره باللون الأحمر إلا بعد أن يراه.

الوعي آية !

دعنا نسمي كل هذا بـ(ظاهرة الوعي)، تلك الظاهرة التي يقصد بها أن لدينا تجارب ذاتية داخلية، وأن عندنا إدراكا داخليا ذاتيا لكيف يكون حال تجربتنا لحالة واعية محددة.

قد يبدو هذا الأمر سهلا يسيرا، مشاعر داخلية نشعر بها مئات أو آلاف المرات في اليوم، بل إننا لا ننفك عن حالة شعورية في لحظة من اللحظات، لا ننفك عن وعي داخلي، نعي به: من نحن ؟ ماذا نفعل؟ بم نفكر؟ إلام نطمح ؟

⇦ لكن دعنا نلتفت إلى جانب آخر من هذا الوعي، جانب غير هذا الذي نعتاده يوميا، جانب قد نكون غافلين عنه.. جانب يزيد الإيمان ويقوي اليقين..

١. أولًا:

إنّ هذه الخصوصية التي تلفّ التجربة الذاتية لوعي إنسان تستدعي التفكّر، خصوصًا عندما ندرك أنّنا لا نستطيع بأي وسيلة مادية أن نقف على حقيقة وكيفية ما يحصل في تجارب الوعي لشخص ما، فحتّى لو راقبنا من الخارج بكلّ الوسائل المادية، فرصدنا أجزاء الدماغ التشريحية وما يظهر فيه من تفاعلات كيميائية وكهربائية، وبقينا نراقبه ونرى ذبذباته تلمع وتختفي أمامنا، وأخذنا نحاول الربط بين منطقة معينة من الدماغ وبين شعور معين، فإنّنا مع ذلك لن نستطيع أن نعرف كيفية شعوره عندما يأكل تفاحة يحبها!

٢. ثانيًا:

إنّ خصوصية تجربة الوعي لكل إنسان تبرز استقلاليته كذات في الإدراك الموحّد لما يمرّ به من تجارب وعي، قد يتعدّد ويتفرّق ما يرتبط بها من أحداث كهربائية وكيميائية مرصودة، ولكنّه يدركها كحالة وعي وشعور واحد، وهذا يدلّ على أنّ فيه شيئًا أعلى من تلك الأجزاء والأحداث الجزئية، شيئًا لا ينتمي لعالم المادة المرصودة بحواسنا! **وتأمّل لتقريب الفكرة مثال السيارة والسائق:** لن تتحرك السيارة بدون سائق، والسائق لن يستطيع تشغيل السيارة أو أن يستعملها بالشكل الصحيح إذا كانت تالفة أو معطلة، ومع ذلك فكلاهما مختلف عن الآخر، فالوعي يرجع لشيء متميّز عن الأجزاء المادية التشريحية لأجسادنا.

٣. ثالثًا :

إنّنا نعلم أن المادة عمياء جامدة، لا إدراك لها ولا وعي، فلا يمكن أن ينشأ الوعي منها . **وتأمّل هذا المثال:** لو أن عندنا قطعة خشب أضفنا إليها مزيدا من الخشب فلن تتحول إلى ذهب، هذا والخشب والذهب ينتميان إلى عالم المادة.. فكيف للوعي أن ينشأ عن هذه المادة، وهو يختلف في طبيعته عنها.. ينتمي إلى عالم .

كيف وُجدت هذه العلاقة العجيبة بين المادة وبين الوعي فينا بني البشر؟بالتأكيد يستحيل أن تكون المادة مصدرا لذلك الوعي، لأنها لا تملكه، وهي كذلك ليست سببا في وجوده !

وهنا يأتي السؤال المهم: كيف وُجدت العلاقة بين المادة الجامدة وبين الوعي أو الشعور؟ بل كيف وُجد الوعي من أصله؟

إنّ وجود الوعي ابتداءً من مجرد مادة لا وعي فيها أمر مستحيل، ولهذا فإنّ سبب الوعي ابتداءً لا بد أن يكون متصفًا بالعلم مع اتصافه بالقدرة على خلق هذا الوعي وخلق التفاعل بين حصول الوعي وبين الأجزاء الجسدية في الجسم، ولوضوح هذا التلازم بين الأمرين يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١] سبحانه.

دليل الوعي وتقدم العلم:

ومهما تقدّم العلم فلن يزيد هذه الحقيقة إلاّ وضوحًا، فإنّنا لو علمنا كل التفاصيل المتعلقة بالدماغ فلا يمكننا معرفة حقيقة شعور شخص معين عندما يحب أو يأكل طعاما يحبه، كيف نشأ هذا الشعور؟ ولماذا؟ وما علاقته بالأحداث الكيميائية؟

---

[١] الملك: ١٤.

فإذا أكلت حبة من الفراولة، سيتمكن علماء الأعصاب من إيجاد علاقات في الدماغ تشير إلى أنك تأكل شيئا، وقد يتوقعون أنك تأكل فاكهة، أو أنك تجدها لذيذة عن طريق سؤالهم لك، وطلبهم منك أن تصف تجربتك الواعية... ولو تجاوزنا أن هذه النتائج تبقى في دائرة الضعف من ناحية التحديد والدقّة، فالإشكال الأكبر أنهم لن يتمكنوا على الإطلاق من معرفة أو معايشة كيف يكون حال أكلك للفراولة، أو ماذا تعني لك اللذة أو الحلاوة؟ وكيف هو شعورك بها؟ ولماذا مررت بتلك التجربة الذاتية المعينة لأكل الفراولة؟

⇦ السبب الرئيس خلف هذا الشيء هو أن علم الأعصاب هو علم يختص بالدرجة الأولى بالعلاقات الترابطية، وغاية ما يقوم به علماء الأعصاب أنهم يراقبون نشاط الدماغ، ثم يربطون ذلك النشاط بما يخبرهم به الشخص صاحب التجربة والشعور، فهو الذي يخبرهم عن حالة الوعي التي يعيشها.

ومع أن هذه "الارتباطات" لم تثبت بشكل مستقر إلى الآن، لأن الربط لا يمكن أن يكون صحيحا إلا إذا ثبت أنه كلما وجد ذلك الحدث العصبي الكيميائي وجد ذلك الشعور، والعكس كذلك؛ وقد وجد بالتجربة أنه قد يحدث تخلف أحدهما عن الآخر، فقد يوجد الشعور ولا يوجد الحدث الكيميائي، وقد يوجد الحدث الكيمائي ولا يوجد الشعور! ثم إنه يظهر لنا عدة عوامل مادية متشابهة عند ذلك الشعور، ومهما حاولوا التقليل من هذه الاحتمالات فإنها تبقى متعددة. فالشيء المتيقن عندهم فقط هو متى تحدث تلك المشاعر والتجارب الداخلية.

مع ذلك، فلا يمكن لهذه "الارتباطات" أن تجيب عن سؤال: كيف يكون شعور هؤلاء المشاركين في حالة أو أخرى من حالات الوعي؟ ولا كيف نشأ ذلك الشعور؟ ولا يمكنه أن يفسر لنا كيف ينشأ الشعور عن أحداث مادية معينة؟

ليس المراد هنا إنكار وجود علاقة بين الشعور وبين الأحداث الكيمائية، بل المراد بيان أن علم الأعصاب لا يمكنه:

١. أن يحدد أي موضع هو المسؤول عن ذلك الحدث بدقة.

٢. ولو حدد فلا يمكنه الادعاء بأن هناك علاقة سببية بين الحدث وبين الشعور.

٣. ولا يستطيع أن يخبرنا بكيفية ذلك الشعور.

٤. ولا يستطيع أن يفسر نشأة الوعي، ولا كيف وُجدت العلاقة بينه وبين المادة.

بين الذات المدركة والذاتية:

يدلّ وجود الإدراك الموحد على ذات واحدة تدرك، ولا يمكن أن يحدث الوعي بلا ذات مدركة، فلو نظرت إلى تفاعلات الخلايا العصبية على أنّ كل منها مسؤول جزئيًا عن الوعي، فمن أين إذًا يأتي الوعي الموحد، من أين تدرك أنّك ذات تتعرّض لمجموعة تجارب تمرّ بها أنت لا غيرك، فأنت من يمسك الفراولة ويشعر بملمسها ثم يمضغها ويشعر بطعمها ثم يشعر بتأثير ذلك على إحساسه بالشبع والرضا بما نال.

إنّ الوعي الموحّد يدلّ إذًا على ذات لا يمكن أن تختزل في مكونات جسدية مادية محسوسة، ويزيد هذه الحقيقة وضوحا ما يلي :

- لو أن فلانا فقد الجزء الأسفل من جسده على إثر حادثة، لبقي فلانا، ولم تنقص ذاته بنقص جسده.

- وحين أكبر أنا وأنت وتتبدل صورنا وخلايا أجسامنا .. فذواتنا باقية كما هي. فنحن نعلم أننا نتغذى لتتجدد مكونات أبداننا، وهذا التغيّر في البدن يفيدنا أن ذواتنا بتجاربها وما تحب وما تكره لا يمكن أعتبرها مجرد أجساد، وإلا كانت تلك الذوات تتبدل مع الزمن، لأن جسد الواحد منا يتغيّر بمرور الزمن، أما

ذواتنا فهي واحدة مُذ كنا أطفالا، كخيطٍ منتظم، تتراكم فيه الخبرات والذكريات، إضافة إلى أنا الواحد منا لو فقد جزءًا من جسده فسيبقى هو هو، ينادى باسمه، ولن تنقص (ذاته)، فذاته ليست مجرد جسده، ولا يمكن أن تختزل في بُعده الجسدي المادي.

⇦ ويزيد هذه الحقيقة وضوحا كذلك.. أننا لو نظرنا بنظرة مادية للأشياء لوجدنا أنّه تجمعات من الذرات ليس لها ذوات مستقلة، وستكون أنت وغيرك سواء، وبل لن توجد تعبيرات أصلا مثل أنا وأنت، وستغيب بناء على ذلك مسؤوليتك كذات عن أفعالك، إلى غير ذلك من الآثار الضخمة التي تبرز وضوح هذه الحقيقة، وهي أنّنا ميّزنا بالذاتيّة التي تدرك بالوعي.

سبحان الله الذي خلقنا وخلق أرواحنا!

يقودنا دليل الوعي إلى يقين بأنّ الله تعالى بقدرته خلق ذواتنا الواعية، وخلق الوعي الذي يحصل بتفاعلها مع أجزاء الجسد، ليضفي علينا معنى الذات وتميّزها عن غيرها.

وهذا القدر الذي دلّ عليه العقل جاء به النقل أيضًا عندما أمرنا بالتفكّر في أنفسنا، وأرشدنا للعلم باسم ما يؤثّر في وجود الوعي وأنّها مخلوق اسمه الروح، فقد أثبتت النصوص الشرعية وجود الروح، وأنها شيء آخر غير الجسد، ولكنها تتفاعل مع الجسد تفاعلًا نشهد آثاره، كما ظهر من دليل الحياة السابق ومن هذا الدليل وغيره، وإن كنا لا نعلم تفصيلًا كيفيات هذا التفاعل، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١].

[١] الإسراء: ٨٥.

وسبحان من خلق وأبدع، ووضع بين جنبينا ما يذكرنا بفقرنا له، ويفتح لنا آفاق التفكر والتطلع لتلبية حاجات هذه الروح المعنوية، لنسعى في تزكية أنفسنا فنفلح، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[١].

لقد أقسم الله ﷻ بهذه النفس، وأخبرنا أنه سواها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[٢]، وأرشدنا إلى التفكر في هذه النفس فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾[٣] ، والتفكر في وعيها من أعظم التفكر.. نعم أنت تحس بذاتك في كل لحظة ومع كل نفَس تتنفسه.. مع كل خطوة تقدِم عليها أو تحجِم عنها، تستشعر في ذلك ذاتك وحريتك... ولكن هل أعطيت تجربة الوعي هذه حقّها من التفكّر؟

وأخيرًا..

لا يقف العجب عند أصل ظاهرة الوعي، بل يمتد الأمر إلى ما يتعلّق به الوعي مما سنقف معه بالتفصيل في مقالات لاحقة، فالوعي نافذة على عالم آخر غير ماديّ، من المبادئ العقلية التي يقوم عليها التفكير العقلاني والقيم والأخلاق وغير ذلك.. وكل ما في هذا العالم الذي نراه من هذه النافذة.. لا يمكن أن يفسّر بمادة عمياء أو أحداث كهربائية وكيميائية لا معنى فيها ولا غاية لها.. إنّه وجود مصدره من له العلم والحكمة والإرادة والقدرة.. إنّه الله سبحانه .

مراجع استُفيد منها في المقال :

- الحقيقة الإلهيّة لـ/ حمزة تزورتزس .
- -براهين وجود الله في العقل والنفس والعلم للدكتور سامي عامري.

[١] الشمس: ٩.

[٢] الشمس: ٧.

[٣] الروم: ٨.

الكاتب : طارق عنقاوي
مراجعة : ريهام سامح - هادي صبري

الدليل الخامس من أدلة وجود الله ﷻ: دليل القدرات العقلانية

وأنت تفحص الأدلة حول قضية ما، تستعمل قدرتك على التعقّل، وتسعى للتفريق بين ما هو حقيقي وغير حقيقي، وبين ما هو صواب وخطأ، وتستعمل لذلك أدوات متعددة للاستدلال، وتستعمل مفردات مثل (واقع) و (حقيقة) و (إثبات) ..

والعجيب أن يفعل الواحد منّا ذلك وهو يبحث في أدلّة وجود الله، وفعله ذلك في الحقيقة من أعظم الأدلة على وجوده وكماله سبحانه!

كيف ذلك؟

لنرى من خلال بقية المقال ..

من أين أتت لنا قدرة التفكير بعقلانية؟

☒ لا يمكن أن يكون ذلك من مجرد المادة غير العاقلة ! هذا مستحيل، وادّعاء ذلك هو بمثابة القول أن شيئًا أتى من مجرد لا شيء، أو أنّ أعمى سيقود حافلة مليئة بطلاب المدارس فيوصلهم دون مساعدة إلى بيوتهم بيتًا بيتًا بالترتيب، **ولذا فلا بد أن هذه القدرات العقلانية ابتدأت من خالق عليم حكيم قدير على إنشائها**، فمن يفقد الشيء ولا يمتلك القدرة على خلقه لا يمكن أن يكون مصدرًا له.

⇦ إنّ مفهوم العقل لا يتفق مع النظرة التي تختزل الوجود في الطبيعة المادية، ولا يمكن أن تكون قدرتنا على التعقّل قد أتت من عمليات مادية

عشوائية عمياء لا إرادة فيها ولا تبصّر ولا إدراك لغايات ولا غيرها، فلا يمكن أن تنشأ تلك القدرات بدون علم وحكمة وقدرة.

⇦ بل إنّ القدرات العقلانية لا تدلّنا فقط على كمال حكمة الله وعلمه وقدرته، وإنما تدلنا كذلك على رحمته، والتي لولاها لما كان ثمّة ضمان لكون قدراتنا العقلية يمكن أن توصلنا إلى الحقائق، فليس ثمّة صلة بين المادة المجرّدة وبين المعاني والغايات، فمن يتنكّر لوجود الله أو كماله -والعياذ بالله- سيهوي إلى هذا العالم الوهمي الذي تغيب فيه شمس المعاني والغايات والحقائق، ويستوي فيه حقّ وباطل، وصواب وخطأ، وجميل وقبيح، وواقع وزيف، فتنهار كل العلوم والمعارف!

ومع أنّ ما سبق كاف في بيان هذا الأمر الذي لا يحتاج لتدليل، إلاّ أنّ من المفيد أنّ نعمّقه بالتأمّل في بعض **خصائص العقل** التي تبرز مفارقته للعالم المادي المجرّد، لتكون الصورة أمامنا أكثر اكتمالا، وتزداد بصيرة الإنسان بعمق قضية وجود الله تعالى.

فمن ذلك هذه الخصائص :

١) **أولًا:** الرغبة في الاستكشاف والسعي للعلم، وتجاوز قدرات العقل لما يحتاجه الإنسان ليعيش، كالقدرات التي تمكننا من فهم سنن الكون وقوانين الرياضيات والفيزياء.

⇦ وهذا يدلّ على أنّنا خلقنا لندرك الآيات ونتطلّع للغايات، حتى نصل للعلم النافع الذي يقود لسعادتنا الأبدية في الآخرة.

٢) **ثانيًا:** خاصيّة التبصّر العقلي التي تظهر في الاستدلال والاستنباط والاستقراء.

كلّ جزء أصغر من الكلّ، ربع البرتقالة جزء منها، فإذًا ربع البرتقالة أصغر من البرتقالة الكاملة.

⇦ هذا الاستدلال يبدو واضحًا وبديهيًا، ويتّفق مع ما نراه حسيًا، ولكن فكّر في التالي: هل إذا غيّرنا البرتقالة إلى أي شيء محسوس سواء كان مما رأيناه كالتفاح أو لم نره سابقًا كأي شيء مصنوع سيخترع في المستقبل، هل ستختلف النتيجة؟ الجواب لا قطعًا، لأنّ العقل يقضي بتلك النتيجة ولو لم يجرّبها، وذلك وفق خاصية التلازم التي يمتلك القدرة على إدراكها دون أن يتوقّف ذلك على تجربة حسيّة لكل ما يندرج ضمن الاستدلال.

٣) **ثالثًا:** وجود مبادئ عقلية فطرية وضرورية للتفكير العقلاني.

⇦ مثل:

- مبدأ السببية، الذي يقود تفكيرنا نحو الأسباب للحوادث.
- ومبدأ عدم التناقض، والذي يصحّح تفكيرنا فيستبعد منه ما يحمل التناقض، مثل: أن يجتمع ما يستحيل اجتماعه كالموت والحياة، والحركة والسكون.
- ومبدأ كون الكل أكبر من الجزء.

وغير ذلك من مبادئ لا تنتمي لعالم المادة المجردة، وليس لها وجود حسّي، بل هي مبادئ معنوية، تتمتّع بالإطلاق بحيث لا تختلف من شخص لآخر أو ظرف لآخر، فهي ضرورية مطلقة، ولذلك يبني عليها الإنسان تفكيره العقلاني ويستخدمها في الوصول للحقائق وتمييزها.

٤) **رابعًا:** قدرة تعقّل الغيب الخبري، والاستعانة لذلك بالمقايسة والتجريد.

⇦ فإذا أخبرت عن وجود بناية تتكون من مئة طابق، وأنت لم تر في حياتك بناية تبلغ أكثر من عشرة طوابق، فإنّك ستتمكّن من تجريد معنى الطوابق وتستخدم معنى الأعداد المجرّد لتدرك معنى البناية المكونة من مئة طابق، بل قد تولّد بهذه القدرة خيالات جديدة ولو لم تكن موجودة فعليًا.

٥) **خامسًا:** استقلال القدرات العقلية عن التبعية الكاملة للحس؛ فالعقل وإن كان يستفيد من التجارب الحسية في أمور كثيرة، إلاّ أنّه يستقل بمعرفة بعض الأمور بدون تجارب حسيّة، فلا يكون تابعا للحس فيها..

⇦ فإذا كانت هذه المفاهيم أو القدرات غير مكتسبة من الحس أو التجربة فمن أين أتى بها الإنسان..؟! نعم لقد رُكبت فيه من لدن الخالق القدير.

⇦ ولنضرب لذلك مثلًا في تفريق العقل بين الأمور التي يَستغرِب وجودها، ولكنه لا يجعل وجودها مستحيلا، وبين الأمور التي يحكم العقل باستحالتها مباشرة:

- فلو كنا موجودين قبل مئات السنين من الآن وقال قائل: أنا أتكلم مع شخص آخر بشكل مباشر وهو في بلد آخر، لاستغرب الناس ذلك واستبعدوه، ولكنهم لا يجعلونه من المستحيلات العقلية .. وها نحن اليوم نعيش ما كان يستبعدونه.

- وكذلك لو قيل لك: تخيل فيلًا ولكن له أجنحة، فإنك تستبعد ذلك وتستغربه.. ولكنك لا تجعله مستحيلا عقلا ، بل يمكنك تخيله.

• ولكن لو قيل لك: تخيل فيلا وهو كالأسد في كل صفاته.. في لونه وطوله وعرضه ووزنه وجلده، لمنع عقلك ذلك لأن هذه الصورة فيها جمع بين نقيضين، وكذلك لو قيل لك تخيل كرسيا يتحرك وهو ساكن في الوقت ذاته، لمنع عقلك ذلك أيضا، ولو لم تسبق لك تجربة حسية حول هذا الموضوع.

خالقٌ عظيم

إذا تصورت طبيعة كل هذه القدرات التي تتجاوز حدود الطبيعة المادية المحسوسة، ستتيقن أن المادة لا يمكن أن تنتجها، ممّا يدلّنا على أنّ مصدرها خالق عظيم حكيم رحيم، وأنه هو وحده القادر على هذا الخلق، فحتّى الإنسان الذي أُعطي هذه القدرات العقلية لا يستطيع أن يعطيها لغيره، لعدم اتصافه بكمال القدرة والعلم والحكمة، ولأنّه لا يملك أن يتجاوز في مصنوعاته المادة فيهب الحياة والعقل والقدرات الخارجة عن الطبيعة الماديّة.

⇦ ولكي نزيد هذا الأمر وضوحًا، لنتأمّل في الحواسيب ..

فالإنسان يصنع الحواسيب ويدخل فيها المعلومات والقواعد، ولكنها مع تعقيدها البالغ لا تملك القدرة على التبصر- مثلا -، وغاية ما فيها من قدرات هي قدرات مستعارة من برمجة الإنسان، وهي تتعامل معها دون إدراك وتبصّر وفهم، بل تتعامل معها كرموز يمكن أن تبدّل برموز أخرى، فلو برمجنا الحاسوب على أن يتعامل مع رمز الموجب على أنّه سالب لقبل ذلك، فالحواسيب مصمّمة بناء على قواعد تراكيبية لا على دلالات تتعقّلها! فهي تتعامل مع الرموز كتراكيب تتغير لا كمعانٍ تتعقّل، والأمر كما لو رتّبت أحجارًا لتسقط بترتيب معيّن فتشكّل رمزًا له معنى، فهذا لا يعني أنّ تلك الأحجار عقلت المعنى وتبصّرت فيه.

وبعدُ، فتأمَّل -أخي الكريم- هذه الخصائص التي تتجاوز حدود الطبيعة المادية المحسوسة.. إنها تدلّنا على عظمة خلق الله تعالى وحكمته ورحمته، وصدق تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[١].

مراجع استُفيد منها في المقال :

- الحقيقة الإلهيّة لـ/ حمزة تزورتزس .
- براهين وجود الله في العقل والنفس والعلم للدكتور سامي عامري.

[١] الذاريات: ٢١.

الكاتب : زينب صلاح

مراجعة : طارق عنقاوي

الدليل السادس من أدلة وجود الله ﷻ: دليل القيم المطلقة

تتعدد ثقافات البشر وتختلف مشاربهم، وتتفاوت مراتبهم، وتفترق معتقداتهم على تطاول الأزمان، لكن عقلاءهم لم يختلفوا يومًا على جمال الفضائل، وقبح الرذائل.. على حسن العدل، وقبح الظلم.. على سموّ الأمانة، وسفول الخيانة.. وما برح الناس يمتدحون الصادق، ويذمّون الكاذب.. بل حتى من طغى نجده يحرص على ادعاء الأخلاق واستجلاب من يمدحه بمكارمها، وهذا فرعون الذي بلغ طغيانه ادعاء الربوبية يقول عن موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[١].

وهكذا يتوافق الناس في النظر إلى القيم، ولا يحتاج الإنسان إلى كبير علم أو طول نظَر ليدرك هذه النظرة إلى القيم، بل هو أمر ضروري متجذر في النفس الإنسانية، يجد المرء من داخله ما يجذبه إليه ويحثه عليه، مع أنه لا يفكر في البرهنة عليه، تماما كما يعرف العقلاء -صغارهم قبل كبارهم- أن الجزء أصغر من الكل، أو أن ١+١= ٢، فثبات هذه القيم في النفس كثبات هذا القانون في العقل، فكلاهما يتسم بالرسوخ والثبات.

قيم مطلقة:

⇦ وهذا يوضح أن نداء القيم في أصله ليس مرتبطا بزمان أو مكان دون آخر، فلا يمكن أن تصير الخيانة معنى جليلًا أو تصير الأمانة معنى مشينًا مهما اختلفت الظروف، ومهما تخيلنا من عوالم أو وقائع ستظل القيم على

[١] غافر: ٢٦.

استقرارها وإطلاقها، لا تنخرم قواعدها. فلا السرقة يمكن أن تُعدَّ فضيلة، ولا الأمانة يمكن أن تصير رذيلة. إنّه إذًا نداء مطلق لا يخضع للتبدل بحسب الظروف، ولذلك تسمّى هذه القيم بالقيم المطلقة.

إنّ هذا الإطلاق في القيم ينفي عنها الخضوعَ للرغبة الذاتية، فهي ليست من تلك المسائل التي يُدلي فيها كل إنسان برأيه، أو تتواضع فئة من الناس على تقريرها، أو تنتجها الثقافات المختلفة وفق ما يلائمها، بل هي معانٍ موضوعية لا تتقيد بالرأي الذاتي، بمعنى أنها لا تنشأ من آراء الناس بل تكون هي الحاكمة على آرائهم.

⇦ ووصف القيم عموما بالإطلاق والموضوعية لا يتعارض مع اختلاف المجتمعات في تحديد قواعد السلوك عموما بحسب الثقافة أو المعتقد، فلا أحد ينكر الاختلاف بين الثقافات في تحديد الآداب المتعددة، وأثر ذلك على عادات الفرد وأفعاله، لكن هذا لا يحدث بالنسبة للقيمة العامة؛ فقد تختلف الثقافات والعقائد مثلا حول كون ضوابط تعامل مالي معيّن من لوازم العدل أم لا، لكن العقلاء لا يختلفون حول فضيلة العدل، ولذلك تأتي الرسالات السماوية بتأكيد هذه القيم المطلقة وتفصيل ما يلزم لتحقيقها بالشرائع التفصيلية التي تفصل النزاع بين الخلائق وتهديهم للحقّ تفصيلًا.

⇦ ونحن لا نزعم عدم إمكانية وقوع الضعف والخلل في التعاطي مع بعض القيم لدى بعض الثقافات أو المجتمعات، بل إن هذا قد وقع قديما وما زال يقع في دنيا الناس لكنه لم يغير شيئا من حقيقة القيمة وأصالتها، فشيوع الرذائل في مجتمع من المجتمعات مع تنكُّرِه للفضائل يدل على فساد المجتمع لا على أن القيم صارت نسبية أو مقيدة بالثقافة، كما أن وجود شخص ينكر أن الكل أكبر من الجزء يدل على أنه فاقد العقل أو مكابر، ولا يغير هذا من ثبات تلك الحقيقة شيئا.

بل لو تخيّلنا شخصًا يتكلّف ويكابر فينكر أصالة القيم ويقول بنسبيّتها، لما استطاع هذ الشخص التزام قوله هذا في حياته العملية، فلن يرضى أن يعامل بخلاف القيم المطلقة فيظلم ويساء له بأنواع الإساءات بحجة أنّ الظالم والمسيء يبرّر فعله وفق نظرته النسبيّة للقيم!

كما أن فكرة النسبية عموما متناقضة في حد ذاتها؛ فمن يقول أننا لا يجب أن نحاكم الأشخاص لمعايير قيمية لأن لكل شخص قيمه الخاصة، سيواجه مأزقًا في أنّ قوله هذا مطلق لا نسبي، فهو إذًا يتناقض ولا يستطيع التزام النسبية!

علاوة على ذلك، فإن القائلين بالنسبية القيمية لا يجترئون على نقد القرارات القيمية للثقافات الأخرى أصلا، لأن هذا سيوقعهم في مآزق كبيرة، فمع القول بالنسبية القيمية لا يحق للمرء الاعتراض على أي رؤية تخالف ما يعتقده، لأنه سيقابل جوابًا يضعه في مأزق، وهو: "هذه أمور نسبية"، ولا يستطيع أن يضع أساسًا للأحكام الأخلاقية على الأفعال، مهما كانت هذه الأفعال ظاهرة البطلان، فلا يمكنه أن يجيب عن أسئلة مثل: لماذا كانت مجازر هتلر ظلمًا؟، أو لماذا يعد تعذيب الأطفال أمرا سيئًا على الإطلاق؟ إذا كان أصحاب هذه الأفعال يرون أنّ لها ما يبرّرها وفق نظرتهم النسبية للقيم!فلا مفهوم للعدل أو الصواب المطلق وفق النسبية الأخلاقية.

وبهذا تتجلّى الطبيعة الأصيلة للقيم ويتهاوى ادعاء نسبيتها، ليلحّ علينا سؤال مثير عن نشأتها.

دلالة القيم المطلقة على وجود الله عزوجل:

فإذا كانت القيم بهذا الرسوخ والثبات، وكانت متجاوزة للرغبات الذاتية وتفاوت الثقافات، فما منشؤها؟ ومن الذي أودعها في الوجود؟

لا نستطيع أن نقدّم جوابا صحيحًا عن هذا السؤال المهم دون الإيمان بالله سبحانه خالقًا فطر الإنسان على هذه القيم، وذلك لما يلي:

- **أولًا:** تصوّر العالم بلا ربّ خالق تصوّر يختزل الوجود في المادة، والمادة لا شأن لها بالمعاني المطلقة والقيم، فلا معنى للخير والشر أو الحُسن والقُبح أو العدل والظلم في عالم المادة المجردة.
- **ثانيًا:** أنّنا نجد أنّ تلك المعاني ضرورية في نفوسنا لا خلاف عليها بين عموم الناس، وبما أننا كائنات حادثة فلابد لهذه المعاني من مُحدِث أودع فينا فطرة إدراكها ضرورة على أنّها قيم مطلقة، ومهما التفتنا بحثًا عن مصدر غير الربّ سبحانه، لن نجد إلاّ النقص والحاجة والمحدودية، وفاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكن أن ننسب الإطلاق إلى المحدودية والنقص والتغير والقابلية للنقض والتعديل والاستدراك، فلا تصلح الظروف الاجتماعية ولا ابتكارات البشر في تفسير هذا الإطلاق ، فهذه المعاني لا تتغير بتغير الظروف الاجتماعية كما وضحنا ، ولا تتعرض للنقد والتعديل والإبطال كما يحصل مع القوانين التي يبتكرها البشر لمعالجة حاجاتهم وظروفهم الاجتماعية.

وإذا كان مودِع هذه القيم في نفوسنا لا بد أن يتنزّه عن التقيد بالنسبيات والمحدودية، وذلك باتصافه بالكمال وتنزّهه عن النقص في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس ثمّة من يتّصف بذلك سوى الله سبحانه. فبلا وجود الربّ الحميد المتعالي عن النقص والتقييد والتغير، تكون هذه القيم مجرد ألفاظ جوفاء لا تعكس أي معنى ذي بال، نفقد المعيار للحكم على الأمور، ويصبح إسداء الحقوق لأصحابها مساويًا للسلب والنهب والطغيان، وتصير الفضائل مثل الرذائل، وهذا لا يقول به عاقل.

ومن هنا ندرك أنّ هذا الدليل -كشأن أدلة وجود الله سبحانه- يستلزم أيضًا كمال الله تعالى وتسبيحه وتحميده، وبدون ذلك لا يكون الإنسان إلاّ في تخبط وضلال، وصدق الله تعالى:

﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[١].

مراجع استُفيد منها في المقال :

- شموع النهار لـ / عبد الله العجيري.
- الأخلاق الإسلامية وميدانها لـ/ عبد الرحمن الميداني.

[١] يونس: ٣٢.

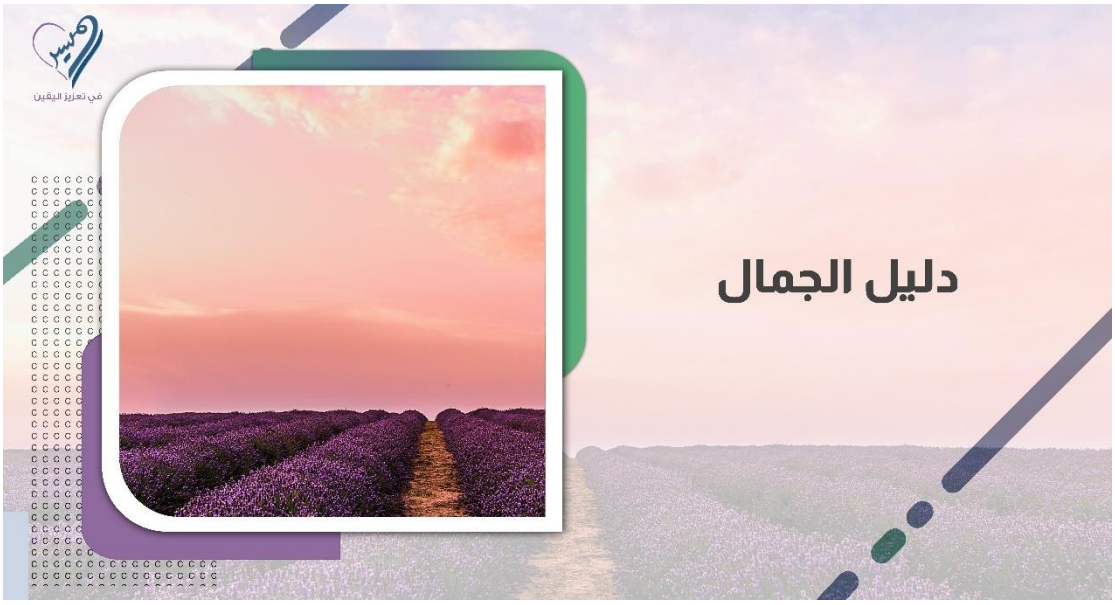

الكاتب : تسنيم راجح - رضا السباعي - هادي صبري - طارق عنقاوي
مراجعة : طارق عنقاوي

الدليل السابع من أدلة وجود الله ﷻ: دليل الجمال

- يصعب على العابر من أي حقلٍ أو بستان تجاهل الراحة النفسية التي تشعره بها خضرة المكان وتوازن الألوان المحيطة به... فإذا توقّف ونظر في أوراق الأشجار رأى الجمال الكثير في تناظر كل منها حول خط الوسط وانتظامها، وفي تطابقها على الأغصان، وفي حوافها الهندسية المتقنة، وعروقها الناعمة الدقيقة وخضرتها الرائقة المثالية. كل هذا يحمل جمالًا لا يمكن إنكاره البتة. بل إن التأمل في جذع شجرة خشبي مكسور يظهر جمالًا وإتقانًا عظيمين. كيف تطابقت خطوط الخشب عبر السنين بهذه الدقة والروعة؟ كيف استدارت طبقات الخشب بهذا الشكل الفراغي المتناظر والمتباين بين عدة درجات من نفس اللون البني؟

- ومن ذا الذي لا يأسره جمال السماء الصافية في الليل المظلم وقد امتلأت نجومًا وكواكب لا تحصى... إنه جمال يسطع في كل شيء؛ من الذرة إلى المجرة، وفي زرقة سماء الصيف إلى خضرة الربيع، مرورا بحمرة ورق الخريف، وجمال ندف الثلج.

- نعيش في دنيا قد امتلأت جمالًا، وما من مظهر من مظاهر ذلك الجمال إلا ويلفت نظر الإنسان، فإذا تأمله شعر بانجذاب إليه.. كأنه جزء منه قد انفصل عنه، والآن يعود إلى وطنه.. يتمنى كل منا أن يملك ذلك الجمال، أو أن يبقى فيه، فإن عجز عن ذلك احتفظ به في ذاكرته، ثم جعله كالسلاح في وجه الهموم والغموم!

إننا أمام دليل من أدلة وجود الله تعالى، يجمع الاستدلالُ به بين النظر العقلي، ورهافة القلب ورقة الحس ...

فما هو الجمال؟ وما دلالة اشتراك البشر في حبه وتقديره؟ وكيف يدل الجمال نفسه على وجود الخالق الذي أبدعه ...

ما هو الجمال؟

قد يصعب تعريف الجمال من خلال الكلمات الجامدة، شأنه في ذلك شأن كثير من المعاني الملازمة للبشر.. فبعض المعاني الواضحة القريبة قد تكون الكلمات مبعدة لها عن النفس، أكثر من كونها مقربة.. ولكن يمكننا أن نقول هنا : إن من أهم معالم الجمال أن تتواجد في الشيء صفات الكمال الخاصة به.. أنماط متآلفة من النظام.. ألوان متناغمة.. أشكال متناظرة.. خطوط متعانقة.. وكلما زادت فيه صفات الكمال؛ ازداد جمالا وحسنا، وترك في النّفس البشريّة إحساسًا بالإعجاب والبهجة والسّرور والدّهشة.

وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: "كلّ شيءٍ جماله وحسنه في أن يحضر كماله اللّائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرةً فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحسن هو الذي جمع ما يليق بالفرس من هيئة، وشكلٍ، ولونٍ، وحسن عدْوٍ، وتيسر كر وفرٍّ عليه"[١].

ويضيف الغزالي أن جمال المظهر أنماط متآلفة من النظام، فإن الفوضى قبح، وتناغم الألوان وتناظر الأشكال وتعانق الخطوط وتردد الأصوات وسباحة الأجرام جمال، إذ إن هذه الأمور كلها تثير في النفس بهجة الاستمتاع وتبعث في العقل تقديرًا للمرئي.

[١] إحياء علوم الدين (٤ ، ٢٩٩)

الجمال حقيقة و اقعية تشترك في تقديرها النفوس

من المسائل التي ينبغي أن تكون واضحة عند الحديث عن دليل الجمال: أن الجمال قيمة تقدّرها النفوس لكونها حقيقة واقعية؛ فالأمور الجميلة هي جميلة حقا في الواقع.

ومن يريد أن تتضح له موضوعية قيمة الجمال، فما عليه إلا أن يتأمل أمورا:

- أنّ الجمال ينبعث في النفس على إثر معان موجودة في الخارج، كالانتظام والتناسق والتناظر في الأشكال، ومع ذلك فالإنسان لا يحتاج لتكلّف الوعي بالجمال وفق خطوات معينة، بل إنّه بمجرد رؤية الجميل يداهمه الشعور بالجمال، فهو يندهش لإعجابه بحقيقة واقعية لم يتكلّف صنعها.

- جميع البشر يفهمون معنى مشتركا من مصطلحات جمالية كجميل ومبهج وأنيق، ممّا يدل على أنها تستند لشيء يتجاوز التجارب الذاتية الخالصة، وهو الجمال الموضوعي الخارجي.

- أنّ ما يتفق الناس على جماله أكثر بكثير مما يختلفون فيه، واختلافهم أحيانًا لا يعني انعدام قيمة تقدير الجمال عندهم، لأنهم لن يترددوا في تقدير جمال الشيء متى تبين لهم جماله.

- الإنسان الذي كان يعيش في بيئة مدنية عمرانية تأسره الحقول الخضراء وتبهره الجبال الشاهقة.. وذلك أنّه يدرك حقيقة موضوعية خارجية لم تصنعها تنشئته وبيئته.

- ولولا أنّ الجمال قيمة موضوعية لما كان هناك فرق بين الزهرة وبين قطعة الفحم، أو الأشكال الهندسية المتناظرة والخطوط العشوائية التي يرسمها طفل.

- أنّنا نجادل غيرنا بحرارة لإقناعه بما نعتقده في القيمة الجمالية العالية لمظاهر الطبيعة أو الأعمال الفنيّة، ونتّهم من لا يشاركنا ذلك أنه ضعيف الإحساس بالجمال... وذلك لأنّ الجمال حقيقة قائمة في الشيء.

الجمال في كل مكان

نعم هذه ليست مبالغة.. الجمال مبثوث في كل ما هو حولنا، ولو أحسن الإنسان التأمل فيما حوله لأدرك ذلك، ومظاهر الاتساق والاتزان في الكون أكثر بكثير من أن تحصى أو تعد ..

⇦ **تأمل** تغريدات الطيور في تدرجها وتداخلها.. لقد كشف علماء بارزون مهتمون بدراسة تغريد الطيور عن جمال أخاذ في هذه التغريدات.. إنها في كثير من حالاتها منتظمة. ومن مظاهر هذا الجمال:

- أن الطيور قادرة على إعادة التغريد بالنغمات نفسها، بعد مدة طويلة من تغريدتها الأولى.
- وقادرة على تعلم تغريدات من طيور أخرى.
- وبعضها قادر على إحداث صوتين مختلفين معا، من خلال مجموعتين من الأغشية.
- وبعضها قادر على تقديم تغريدات ثنائية أو رباعية بين طيور عدة.

⇦ ومن مظاهر تجذّر الجمال: أنّ وظائف بعض الأشياء تُؤَدى عن طريق جمالها، فهذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح، فتقوم بنقل اللقاح لتنشأ الثمار، وهكذا الجمال الذي يجذب الحيوانات لبعضها لتؤدي وظيفة التكاثر.

⇦ كما أنّ وجود الجمال وشعور الإنسان به وانجاذبه إليه يساعد على اكتشاف وفهم قوانين الكون! حتّى قرّر بعض علماء العلوم الطبيعية أنّ الجمال مع كونه من دوافع الشغف العلمي يهدي للحقائق العلمية، لكونه جزءًا أصيلًا في بنية الكون في كل مستوياته، حتّى أنّه يلفت انتباه العالم لاكتشاف الحقيقة في المعادلات الرياضية التي يرى المختصون جمالا في صياغتها. ومن أمثلة ما ذكرنا ما قاله مكتشفو شكل الحمض النووي، فقد انجذب الفريق العلمي الذي اكتشف ذلك للشكل الحلزوني وشعروا بأنّ شكلًا بهذا الجمال لا بد أن يوجد لغاية! ثمّ تطابق ما اهتدوا إليه رياضيًا مع ما أظهرته الأشعة !

⇦ ومن سمات جمال قوانين الكون: البساطة والتناسق، ففيها جمال وجاذبية وأناقة وتناغم، ويتجلّى ذلك في ظاهرة التناظر التي تشكّل أهمّ السمات الأساسية للنظرية العلمية، وتواجه الباحث في هذا الكون من أصغر الأشياء في عالم الذرة إلى أبعدها في المجرات، وتثير حين يشهدها في مختلف أجزاء الكون الصغيرة والكبيرة والمتنوعة الدهشة والرهبة والإعجاب، وتدفع العقل لمحاولة فهم العالم البعيد من خلال العالم القريب، فالكون مرآة لبعضه، وهذا من أعظم أدلة وحدة خالقه سبحانه.

⇦ ومع هذه الفوائد للجمال في الأحياء والجمادات، إلاّ أنّ قدر الجمال الموجود في هذا الكون كثيرٌ ومتنوّع إلى درجة أنّ الإنسان يدرك أنّه لم يوجد لفوائد وظيفية أو علمية ، بل إنّه وجد ليكون الوجود جميلًا.

⇦ وتأمل -مثلا- السماء الزرقاء المزينة بالنجوم، وجمال البدر في ليلة مقمرة، وتداخل الشفق الأحمر مع زرقة السماء وأشعة الشمس الذهبية في مشهد الغروب الذي يبدو وكأنه لوحة فنية تآسر القلوب وتسر الناظرين . تأمل وجود ملايين الأنواع من الزهور والورود.. تتباين ألوانها وعطورها، وكلها بديعة زاهية.. وكثير من مظاهر الجمال الخلابة في الكون مما ليس له فائدة وظيفيّة، وإنما خلقه الله عز وجل للزينة والجمال وإبهاج النفوس، حاملا رسائله لأولي الأبصار، دالا على خالقه وبديع صنعه واتصافه بالجمال ﷻ، مذكرا بنعم المولى علينا؛ فمَن وضع فينا تقدير الجمال قد خلق الكون كذلك جميلا في كل ما حولنا، وهذا ما أرشدنا إليه القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَلَم يَنظُروا إِلَى السَّماءِ فَوقَهُم كَيفَ بَنَيناها وَزَيَّنّاها وَما لَها مِن فُروجٍ * وَالأَرضَ مَدَدناها وَأَلقَينا فيها رَواسِيَ وَأَنبَتنا فيها مِن كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ * تَبصِرَةً وَذِكرى لِكُلِّ عَبدٍ مُنيبٍ﴾[١]، فتبدأ الآيات بالنظر والتفكر، ثم بتقرير الجمال، لتنتهي بالتبصير والذكرى بالحقيقة الواضحة عن الخالق، والتي تستلزم إسلام النفس له بالعبودية والإنابة إليه.

[١] ق: ٦-٨.

الجمال دليل على الخالق الذي أبدع

عرفنا مما سبق أنّ الجمال شيء زائد على مجرد إتقان وإحكام الشيء؛ فقد يكون الشيء متقنا ولكنه غير جميل، وقد يؤدي الشيء وظيفته بإتقان وعلى الوجه الأكمل وهو غير جميل، فوجود الجمال دليل إضافي على الخالق سبحانه، وهو يقوم على حقيقتين تقدم بيانهما، وهما:

- وجود الجمال في الكون.
- ووجود قيمة الجمال في النفس كمعنى مشترك لدى البشر جميعًا، مغروس فيهم من طفولتهم دون حاجة لتعليم.

فالحقيقة الأولى تدلّ على الخالق من جهة أنّه لابد من مبدع لهذا الجمال، فهو لا يأتي من كون يتكوّن من مجرد مادة وطاقة عمياء عشوائية لا تعرف الغايات ولا القيم، ففاقد الشيء لا يعطيه، بل يأتي الجمال عن غاية تكشف عن إرادة وحكمة بل وجمال.

والحقيقة الثانية تدلّ عليه من جهة أنّ وجود معنى الجمال في فطرنا يدل على أنّ هناك من أعطانا هذه الهبة، فهي مجددًا أمرٌ أكبر وأعظم مما يملكه عالم ماديّ عشوائي، ولا يمكن للمعنى أن يأتي ممّا لا معنى فيه، فالجمال قيمة شريفة تلاقي الحاجة في نفوسنا لما هو أكمل، تلك النفوس التي لا تزال في تطلّع للأكمل لا يسكّنه إلاّ الإيمان بالله الحميد الذي له كل الحمد والكمال، وهو أعظم كمالًا وجمالًا من باب أولى من كل ما نشهده في أنفسنا وفي الآفاق.

إن الجمال تعبير عن معاني الكمال في الذات الإلهية، والجمال أحد أركان الجلال.. والجلال منتهى الحسن والعظمة؛ وهو قائم على ركنين اثنين: الكمال والجمال؛ فالكمال بلوغ الوصف أعلاه، والجمال بلوغ الحسن منتهاه، يقول الله تعالى: ﴿تَبارَكَ اسمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ وَالإِكرامِ﴾[١].

[١] الرحمن: ٧٨.

ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر الى كمالها: ﴿تَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ المُلكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ * الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ طِباقًا﴾[١]، ثم قال: ﴿وَلَقَد زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بِمَصابيحَ﴾[٢]، وما ذلك كله إلا لأن إدراك جمال الوجود، هو أقرب وسيلة وأصدقها لإدراك جمال خالق الوجود؛ فكما دل الخلق على وجوده وقدرته تعالى، فقد دل جمال الخلق على جماله ﷻ، فيكون بذلك العلم بالجمال بعض حقيقة الإيمان بالله عز وجل.

قال ابن القيم رحمه الله:"ومن أسمائه الحسنى: الجميل؛ ومن أحق بالجمال ممن خلق كل جمال في الوجود؟ فهو من آثار صنعه؛ فله جمال الذات، وجمال الأوصاف، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء؛ فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها كمال، وأفعاله كلها جميلة... فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئا من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات"[٣].

لماذا تسحرنا الطبيعة الخلابة؟ لماذا يقف الناس طويلًا متأملين سكون البحر؟ لماذا نشعر بفرح غامر حين نتأمل وجه طفل رضيع؟ لماذا تسعدنا الابتسامة؟ ما حاجتنا لهذه القدرات؟ ومن الذي أودعها فينا؟

- إن الإحساس الجمالي في الإنسان حركة عاطفية في الروح، وشعور بالفرح والطمأنينة، وهو ينتشر في عمق النفس متصلًا بدواخلها النفس.

- إن قدرتنا على استشعار أنواع مخصوصة من المتعة من ألوان وأشكال وأصوات مخصوصة لمن أدل الأمور على وجود الخالق القدير.. لقد خلقنا الله لا لنعيش ونموت فحسب، فقد أعطانا القدرة على استشعار

---

[١] الملك: ١، ٢.
[٢] الملك: ٥.
[٣] روضة المحبين (٤١٤، ٤١٥).

نعمه الدنيوية علينا لتتوق أنفسنا لجنته ونفهم وصفه لها في كتابه الكريم؛ وأعطانا الجمال في الوجود واستشعاره والاستمتاع به بما يزيد عن حاجتنا للبقاء، لأنّ المطلوب منّا هو أكبر من مجرد البقاء على قيد الحياة، واسأل عن ذلك نسائم العطور التي يكفينا عنها مجرد الهواء، وألوان الزهور التي تكفينا عنها حقول الأطعمة الأساسية، وجمال المشاهد المتنوعة وأصوات تغاريد الطيور، كلها تخبرك كيف تفضل الخالق العظيم بإشباع كل حاسةٍ في الإنسان.

قال ابن القيم رحمه الله: "أما الجمال الظاهر فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض؛ وهي من زيادة الخلق في قوله تعالى: ﴿يَزيدُ فِي الخَلقِ ما يَشاءُ﴾[١]".

القرآن الكريم يحدثنا عن الجمال

- لقد جاءت في القرآن الكريم آيات عدة ترشدنا إلى التأمل في مظاهر الجمال والعناية بها.. تأمل قوله تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ طِباقًا ما تَرى في خَلقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ فَارجِعِ البَصَرَ هَل تَرى مِن فُطورٍ . ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ يَنقَلِب إِلَيكَ البَصَرُ خاسِئًا وَهُوَ حَسيرٌ﴾[٢]، فالبصر سيرجع بعد رحلته وقد أصابه الإعياء ولم يجد عيبًا، وقد أكد الله تعالى ذلك في قوله: ﴿أَفَلَم يَنظُروا إِلَى السَّماءِ فَوقَهُم كَيفَ بَنَيناها وَزَيَّنّاها وَما لَها مِن فُروجٍ﴾[٣]، فالخلل والتناقض منفي عن صنع الله الذي أتقن كل شيء.

- والجمال الذي خلقه الله تعالى في الكون يراه العبد كل لحظة، وفي كل مكان؛ فيرى السماء ونجومها وكواكبها ﴿إِنّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بِزينَةٍ

---

[١] فاطر: ١.

[٢] الملك: ٣-٤.

[٣] ق: ٦.

الكَواكِبِ﴾[١]، ويرى الأرض وما فيها من أنواع الجمال ﴿إِنّا جَعَلنا ما عَلَى الأَرضِ زينَةً لَها﴾[٢]، ويرى الإنسان جمال صورته ﴿وَصَوَّرَكُم فَأَحسَنَ صُوَرَكُم﴾[٣]، ويرى الجمال والزينة فيما سخره الله تعالى له ﴿وَلَكُم فيها جَمالٌ حينَ تُريحونَ وَحينَ تَسرَحونَ﴾[٤].

⇦ وينتظم جمال الخلق كله في قوله تعالى ﴿صُنعَ اللَّهِ الَّذي أَتقَنَ كُلَّ شَيءٍ﴾[٥]، وقوله تعالى ﴿الَّذي أَحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ﴾[٦].

وبعد ..

فإن أثر تقدير الجمال وإدراك دلالته عظيمٌ على المؤمن، ولذا نجد أنّ القرآن يلفت أبصارنا إليه ليرفع به مستوى الإنسان، ليكون ذواقا لما في آفاق الأرض والسماء من نواحي الجمال، فينظر إلى الكون على أنه هذه الصفحة التي يتجلى فيها الجمال الإلهي.. فالمؤمن إذن يعلم أن الجمال دليل على قدرة الخالق العظيم... دليل على جماله عز وجل.. دليل على رحمته سبحانه.. يستثير وعي الإنسان ليستدل به على الخالق وصفاته..

ومن الآثار المترتبة على تقدير الجمال وإدراك دلالته:

- يمتلك المؤمن -من خلال ذلك- نظرة متسقة للكون والحياة؛ فالجمال بما فيه من إبداع داخل في إيمانه بوجود خالق حكيم عليم.. على كل شيء قدير.

---

[١] الصافات: ٦.

[٢] الكهف: ٧.

[٣] غافر: ٦٤.

[٤] النحل: ٦.

[٥] النمل: ٨٨.

[٦] السجدة: ٧.

- يلاحظ المؤمن آثار كمال الخالق من خلال مخلوقاته؛ فيرجو رحمته، ويتعلق قلبه به سبحانه.
- يتحصل المؤمن على نظرة متفائلة للحياة؛ من خلال إدراكه أن الجمال هو الغالب على هذا الكون، وأنه هو الأصل، وأن غير ذلك استثناء يكون لحكمة بالغة.. بل إنه يعلم أن هذا الاستثناء القليل دليل على غلبة الأصل الجميل، فبضدها تعرف الأشياء.
- المؤمن هو الذي يقدر الجمال حقا؛ فإنه يؤمن بواهب هذا الجمال، فيراه قيمة حقيقة أصيلة.. ويجد في ما يعتقده من الإيمان بالله تعالى وصفاته، وما يشهده في مخلوقاته وتشريعاته الحكيمة اتّساقًا وتعزيزًا لهذه القيمة.

يتفكّر المؤمن بعقله في غاية وجود الجمال وكثرته وعظمته في الخلق، ولا بد له بذلك من شهود حكمة الرب، ثمّ يتفكّر في كثير من صور الجمال -كجمال السماء البعيدة- الذي لا تبدو له فائدة وظيفيّة، وإنما هي آيات ورسائل تهز الوجدان وتأسر الألباب ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا فِي الآفاقِ وَفي أَنفُسِهِم حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَم يَكفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ﴾[١].

مراجع استُفيد منها في المقال :

- براهين وجود الله في العقل والنفس والعلم للدكتور سامي عامري.
- جمالية الدين لـ/ فريد الأنصاري.

[١] فصلت: ٥٣.

الكاتب : آسية الحاجي - تسنيم راجح - هادي صبري
مراجعة: طارق عنقاوي - ريهام سامح - سمر لطفي

الدليل الثامن من أدلة وجود الله ﷻ: دليل الإرادة الحرة

(١) وجود الإرادة الحرة حقيقة لا شك فيها

لنتأمل معًا حال أسير مكبل بالقيود، يحاول القيام فلا يستطيع، ويحاول تحرير يديه فيصطدم بالقيود ملتفة حولها.. كلنا يدرك -كما الأسير- أن تلك القيود تمنعه من ممارسة شيء يتسق مع طبيعته كإنسان عاقل، وتحجزه عن أن يكون إنسانًا طبيعيًا يتحرك كيف شاء.. نعم، إنه يحاول أن ينفذ إرادته، ولكنه مقيد بتلك القيود التي يعلم يقينا أنه لولاها لتحرك وتحرر .. يعلم ذلك يقينا لأنه يدرك أنه إنسان لديه إرادة حرة.

ونحن البشر نتعامل معًا على هذا الأساس:

كل إنسان مسؤول عن تصرفاته لأنه يفعلها بإرادته، ولا يجبره عليها أحد، ولذلك فإننا نكرم المحسن، لعلمنا أنه يحسن بإرادته. وكذلك نعاقب الجاني، ولا نقبل منه ادعاء أن جوارحه تصرفت رغما عنه.. ولولا هذا الأساس الوجودي لاختل نظام الحياة، ولما أُكرم صاحب إحسان، ولا عُوقب مجرم ظالم.

إن الوعي بهذا الإحساس لا يخفى حتى على ذلك الطفل الصغير المعاند، الذي يقطب جبينه، وينكس رأسه، ويصر على ما يريد فعله !

هذه الأمثلة وغيرها تبين أن الإرادة الحرة هي جزء من وعي الإنسان وشعوره بذاته، لأنها تتعلق بذلك الإحساس الفطري، الذي لا يملك عاقل دفعه عن نفسه ولا يمكن له إنكاره .. ذلك هو شعورك أيها الإنسان بأنك حر في تصرفاتك، مختار لأفعالك، تتحرك إذا شئت، وتتكلم إذا أردت، وتأكل وتشرب تبعا لرغبتك..

تحدد أهدافك وفق رؤيتك، وتسعى إلى غاياتك بدافع من نفسك، وتتخذ قراراتك بما يمليه عليك فكرك.. فأنت حي مسؤول ولست بدمية لا إرادة لها ولا اختيار ولا قرار...

ومن هنا كانت الإرادة الحرة ضرورة عزيزة على الإنسان لا يسمح لأحد أن يعتدي عليها.. إنها مكون أساسي من مكونات وجدانه وعاطفته.. وكم مدح الناس -قديما وحديثا- الأبطال، وذموا الجبناء، ورفعوا العظماء.. وليس ما بينهم من التفاوت إلا إرادات وهمم ومقاصد واختيارات.

- **حقيقة الإرادة الحرة:**

الإرادة هي التي تحرك العزم على إيقاع فعل ما، وهذا يشترك فيه كل الأحياء، ويتميز الإنسان عن الحيوان بقدرته على عدم الانسياق لغرائزه دون بصيرة عقلية، لأنه واعٍ بمخرجات الأمور وملابساتها وعالم بمآلاتها، وله تصورات لما يدفعه إلى الفعل ولما يمنعه عنه، فيختار مما يَعرِض له من البدائل أو الاختيارات الأخرى ما يترجّح لديه حسب غاياته ومقدوراته، فمن يضرب يعلم أن الضرب يؤلم، فلا يُنزله إلا على من أراد تأديبه، كذلك من ينطق بالكلمة يدرك تأثيرها على النفس وأثرها فيها ، فيختار الطيب منها إذا شاء، ويجتنب غيرها.

والإرادة الحرة هي التي يتميز بها حال حضور العقل عن غيابه، ولذا نفرق بين من يمشي واعيًا ومن يمشي في نومه.

ومن أهم الشواهد التي توضح حقيقة وجود إرادة حرة لدى الإنسان:

أنه يفرق بين الأفعال التي يملك قرارها، وبين الأفعال التي يضطر إليها ولا يملك قرارها؛ فإنه يعلم يقينا الفرق بين نبضات قلبه وتدفق الدم في عروقه دون إرادته، وبين قيامه وقعوده بإرادته، كما يدرك الفرق بين ما يجري عليه

قدرا كخلقه ذكرا أو أنثى دون اختيار منه وبين أن يكون إنسانا صالحا أو فاسدا بموجب أفعاله بقصد منه . ومن هنا كان عقد النية على فعل معين من معايير الحكم على هذا الفعل من حيث المدح والذم، ولذلك قال الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...»[١]، لأن أفعال الإنسان الاختيارية تعبّر عما انْطَوت عليه نيته وقصده، ولا يكون هذا في الأفعال الاضطرارية .

- **لولا الإرادة الحرة!**

أول ما يخسره الإنسان إذا تنكر للإرادة الحرة هو ذاته، لأنه بذلك يخالف فطرته، ويغطي عقله، ويتنكر للغاية من وجوده، مما يضع حياته وحياة البشرية في خطر عظيم، بل ويهبط من منزلته العالية التي نالها بتكريم الله عز وجل له وبالاصطفاء بالتكليف والعقل والإرادة الحرة إلى منزلة الجمادات والحيوانات، فالإرادة الحرة لا يتوقف دورها عند حدود الحركة الاختيارية الاعتيادية من سكوت أو كلام أو جلوس أو قيام، وإنما يتعدى ليبلغ مقام التكليف والقدرة على الطاعة والمعصية واتباع الحق أو الباطل، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

فلو كان الإنسان مجبرا على فعله كالآلة، فلماذا يحاسب؟ وما قيمة وجود ما يضبط أفعال الناس حينئذ؟ بل إن إنزال الثواب والعقاب على الناس حينها يكون من أبطل الباطل، وحينئذ تكون حياة الناس فوضى.. لا أمل في إصلاحها أو تحسينها، والقتل والظلم والنهب متوقعًا ومقبولًا في كل حين.

لكن من ينظر نظرة خاطفة من حوله يعلم أن هذا وهم لا يستطيع البشر تحمل تبعاته، ولذلك فإننا نرى المجتمعات تنضبط ضمن نُظُم، ونرى مديري

---

[١] صحيح البخاري (١).

[٢] الملك: ٢٢.

الشركات يلزمون موظفيهم بالقدوم للعمل في ساعاته، ونرى الناس يمدحون المتفوق ويذمون المهمل، ويستحسنون الإنجاز ويبغضون الكسل، ويثنون على الخلوق ويتجنبون البذيء.. كل ذلك لأن حرية إرادة الإنسان سبب في خروج أفعاله إلى حيز الوجود عن قصد واختيار.

(٢) الإرادة الحرة دليل على وجود الله عزوجل

لا يوجد عاقل يسوغ أفعاله الشنيعة بأنها صدرت رغما عنه كما تصدر حركاته الاضطرارية، وإلا كان الإنسان كالحاسوب أو الرجل الآلي .. ومهما أتقنا هذه الآلات المادية الجامدة، فإننا لا يمكن أن نخلق فيها ما هو خارج عن طبيعتها كحرية الإرادة،بل ولا يمكن أن نتصور وجود علاقة بين أجزاء الحاسوب المادية وبين الإرادة الحرة.. فما بالنا لا نعجب للإنسان ومكوناته الجسدية لا تختلف عن سائر الحيوان ولكنه يسمو عليها بهذا المكون الغريب الذي لا علاقة له باللحم ولا بالدم، ولا بالحديد، ولا بغيره من الجماد!

وما لنا ألا نعجب ونتساءل ..

⇦ ما مصدر الإرادة الحرة !؟

ولنتأمل ونتفكر..

⇦ مَن الذي ميز الإنسان بهذه الخصائص وما الغاية والحكمة من هذا التمييز !؟

☒ لا يمكن أن يهبها الإنسان لنفسه.

الإرادة الحرة متجذرة في النفس البشرية لا يمكن للإنسان أن يتجرد منها؛ فهي ليست خيارا "يفعله" إذا شاء، ويعطله متى شاء.. ولما كان الإنسان عاجزا عن ذلك فإنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون هو مصدرا لها، بل يجب أن يكون مصدرها متصفًا بالقدرة، متعاليا عن عجز البشر.

ولا يمكن أن يكون الإنسان مصدرا للإرادة الحرة؛ لأن إرادةَ إحداث هذه الإرادة في النفس يجب أن تسبقها إرادة قبلها، وهذه الأخرى يجب أن تسبقها إرادة غيرها، وهكذا إلى ما لانهاية.. وهذا التسلسل غير المتناهي مستحيل عقلا! ولا بد أن يبتدئ إنشاء هذه الإرادة من له إرادة تتصف بالكمال، فلا يعتريها نقص ولا يسبقها عدم، ولا يتصوّر أن يتّصف بكمال القدرة والإرادة إلاّ من يتّصف بكمال العلم والحكمة .. كلّ ذلك لا يتّصف به إلاّ الله تعالى، الأوّل الذي لم يلد ولم يولد، فهو القدوس السلام المتنزه عن النقص، الغني الذي لم يفتقر ولا يفتقر لغيره أبدًا.

☒ ولا يمكن أن يكون مصدرها الدماغ وحده.

فتصوُّر أنّ العقل مجرّد مكونات تشريحيّة ماديّة لا يمكن أن يتّسق مع معنى الإرادة الحرّة، والخلايا العصبية التي تنقل الإشارات الكهربائية والنواقل الكيميائية العصبية، لا تمثّل الوعي بمجرّدها كما سبق في دليل الوعي ، ولا يمكن أن تُتصوّر الإرادة بلا وعي.

بل إننا إذا تأملنا تحركات الإنسان وراقبنا تلك الخطوات المتسلسلة التي تؤدي إلى اختياره لفعله ازداد عجبنا؛ فهي عملية اختيار معقدة، تدخل فيها عوامل عدة؛ فالإنسان يرجح بين ما تمليه غريزته وما يمليه عقله، وقد يراعي عدم إلحاق الضرر بالآخرين بسبب ما يتخذه من قرارات.. وقد يرجح التزامًا بعوامل خارجية، من عرف سائد أو دين متبع.. وفي هذه الخاصيّة يتجلى نور الإيمان عندما يخالف المؤمن كل إرادة تعارض الشرع، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[١].

☒ ولا يمكن أن يكون مصدرها الجينات الوراثية.

وكذلك لا يمكن أن تكون الجينات والوراثة هي مصدر الإرادة؛ لأن اختزال الإرداة الحرة في معلومات وراثية يجعلها غير موجودة حقيقة، وقد أثبتنا في

---

[١] الشمس: ٩ – ١٠.

الجزء الأول من المقال وجودها وإدراكنا لهذا بالضرورة، كما أن الإنسان يمكنه اكتساب عادات وتعديل سلوكيات مما يبطل ربط سلوكه وفعله بجينات لا يمكنه الانفكاك عنها، ثم من ركّب الجينات في الإنسان الأول إذًا؟!

☒ ولا يمكن أن يكون مصدرها المادة .

فالمادة جامدة لا حياة فيها ولا وعي ولا إرادة، وفاقد الشيء لا يعطيه، والوعي والإرادة والإدراك وغيرها من مكونات النفس وخصائصها هي معان متجاوزة للمادة التي نعرفها.

☑ الإرادة الحرة تدل على الخالق عزوجل وصفاته.

يلزم ضرورة أنّ هذه الإرادة مصدرها متعالٍ عن كلّ نقص، متّصف بكل كمال، جعل هذه الإرادة في النفوس بمشيئته وعلمه وقدرته وحكمته؛ ليجعل للحياة هدفا ساميا وغاية بالغة أرادها سبحانه، وتتجلى عظمة الباري في إبداع هذه النفس وما حَوت، وصنعة الإتقان فيما ظهر منها وما طوت، وما زالت من الأسرار في العلوم الحديثة وإن حاموا حولها، ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾[١].

وإذا علمنا أن الإرادة الحرة عامّة لكل نفس إنسانية، وأنها ليست خاصة بزمان دون آخر، ولا بقوم دون قوم، وأنها لا تخضع للتفسير المادي المجرّد؛ لأنها خارج نطاق المادة الصمّاء التي لا إرادة لها.. فلا يكون المُودِع لهذه الإرادة إلا مُتعاليا عن المادة، مريدا وقادرا؛ ففاقد الشيء لا يعطيه، والناقص أنّى له أن يهب الكمال لغيره؟

وبهذا يكون وجودها دليلا على وجود الخالق القادر البديع القدّوس المنزّه عن قصور المادة سبحانه، الذي يريد ويفعل بإرادة وقدرة مطلقتين.

---

[١] المؤمنون: ١٤.

وكذلك يلزم أن يكون خالق هذه الإرادة عليما بنفس الإنسان، وبما يصلح له في كل زمان ومكان، ومن أعلم ممن برأ النّسمة، وخلق الإنسان ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[١]، وهو القائل جلّ مِن قائل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

وكذلك لا يكون إلا حكيمًا؛ لأن هذه الإرادة إنما جُعِلت في مكنون النفس لأجل غاية، قال الحكيم العليم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[٣]، فالله قد خلق الخلق لعبادته، وجعل الدنيا قنطرة عبور واختبار، ومقتضى حكمته وعدله سبحانه أن جعل لهم الاختيار، قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[٤]، فيثيب من أطاع برحمته، ويعاقب من عصى بعدله، ويتجاوز تعالى عمّن يشاء بفضله.

وهذه الصفات: الإرادة والقدرة والعلم والحكمة والخلق هي من لوازم الحياة، فلا يكون المتصف بها إلا حيّا، ولله كمال الحيّاة، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وَ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[٥].

فدّلت الإرادة إذًا على وجود فاطرها المتصف بصفات الكمال والجمال والجلال.. وهكذا نجد أنّ إمعان النظر في النفس ومواردها والتفكر فيها؛ كاف في هداية الناس إلى بارئهم الحق، وصدق عزّ وجلّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٦].

---

[١] الزمر: ٦.

[٢] يس: ٧٩.

[٣] ص: ٢٧.

[٤] التكوير: ٢٨.

[٥] البقرة: ٢٥٥.

[٦] فصلت: ٥٣.

مراجع استُفيد منها في المقال :

- شموع النهار لـ/ عبد الله العجيري.
- دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد للدكتور هشام عزمي.
- مقال دلالات الفطرة على وجود الله من مركز يقين.

الكاتب : ريهام سامح - تسنيم راجح
مراجعة : طارق عنقاوي

الدليل التاسع من أدلة وجود الله ﷻ: دليل الغرائز

- **من** الذي علم الرضيع أن يلتقم ثدي أمه حال قدومه إلى هذا العالم الغريب؟
- **مَن** الذي أرشد أسماك السلمون أن تسافر من نهر لآخر في موسم تكاثرها؟
- **كيف** عرفت ذكور البطريق أن عليها أن تلصق بيوضها بأرجلها شهرين كاملين لئلا يتجمد جنينها حتى الموت؟ ولماذا تتمسك كل الكائنات الحية بالحياة؟
- **مَن** علم النحل بناء بيوت سداسية بمقياس موحد في العالم كله، وكأنه تعلّم أن السداسي هو ما يعطي أكبر فراغ بأقل كمية من مواد البناء؟ ومن علّمه بناء مخازن الشمع بأسقف مكتومة وبناء بيوت اليرقات بأسقف نفاذة للهواء، ولو عُكسا لماتت اليرقات ولتلف العسل؟
- **مَن** علم الطائر أبو نقار أن يحفر وكره في النهر مائلا إلى الأعلى؛ ليمنع الضغط الجوي الموجود بالوكر وصول المياه للبيض الموجود في نهايته فيحافظ عليه، وكأنه يعرف قوانين الفيزياء !؟
- هذه البعوضة التي تضع بيضها في مجموعات على شكل قارب يمكنها من الطفو وكأنها على علم بقوانين الطفو والغوص، **مَن** هداها لهذا ؟
- ومَن هدى الطفيليات كالبلهارسيا لحظة خروجها من البيض للعائل الذي لن تعيش إلا فيه، فتذهب إليه وكأنها تعرفه بدقة ؟

كثيرة هي تلك الميول الموجودة في الكائنات الحية منذ لحظة ولادتها الأولى، وكلما تأملنا أكثر تكشف لنا المزيد من التصرفات والتوجهات التي تبهر العقول، فالأم مستعدة للتضحية براحتها وحياتها في بعض الحالات من أجل وليدها، والعصفور يخرج الطعام من فمه لإطعام صغاره معرضا عن حاجته هو

للغذاء، والنحل يصنع من العسل ما يضطره للعمل بدأب واجتهاد رغم عدم حاجته لكل ذلك الإنتاج.

⇦ تلك النزعات وغيرها من النشاطات الموجهة عرفت علميا باسم الغرائز، ويمكن تعريفها بأنّها ميل في الكائن الحيّ إلى سلوكيات غير مبنية على تجربة سابقة أو تعلّم.

مصدر الغرائز في الكائنات الحية

☒ الغرائز لم تأتِ من التجربة أو التعلم .

الرضيع الذي لم يجرب شيئا في العالم إلا رحم أمه يميل للقرب من والدته ويهدأ بمجرد أن يشعر بدفئها ورائحتها، والسلاحف البرمائية تدفن بيوضها على الشواطئ ثم تعود إلى المياه، حتى إذا فقس البيض وخرجت الصغار إلى الحياة نجدها تتوجه فورا وبشكل تلقائي إلى بيئتها المائية التي تنتمي إليها دون سابق عهد لها بها ولا سابق تعلم ولا تجربة، مما يدل على أن الغرائز غير مكتسبة من تجارب أو خبرات أو بالتعلم.

ومما يؤكد هذا أن الغرائز توجد في الكائنات التي ليس عندها قدرات عقلانية تساعدها على جمع المعلومات وربطها وتحليلها ومعرفة الصائب منها الذي يحفظ حياتها من الخاطئ الذي يدفعها للهلاك، فوجود الغرائز في هذه الكائنات وتعقيد نظمها ودقة نتاجها دليل على أن مصدرها ليس التعلّم أو التجربة. وخذ مثالا على ذلك: السمكة المنتفخة الصغيرة، فهي تقضي سبعة أيام في عمل دؤوب ترسم لوحة خلابة غاية في الدقة والإتقان في رمال قاع المحيط لتجذب الأنثى إن رأتها من بعيد للتزاوج[١] .

[١] اضغط هنا لمشاهدة المقطع.

إلى ماذا تشير الغرائز؟

تشير الغرائز إلى وجود العناية والدقّة والغاية والحكمة.

☒ ويستحيل إرجاع ذلك إلى مجرد المادة.

• إذ كيف لطبيعة غير عاقلة ولا واعية ولا مريدة أن تنتج هذه الخطط المتقنة المنظمة التي قد تفيد الكائن نفسه وقد تودي بحياته في سبيل إنقاذ غيره؟

• وأنى للصدفة أن ينتج عنها كل هذا الفعل المتقن بلا فاعل مختار مريد متصف بالعلم والقدرة (انظر دليل الإتقان، و دليل الخلق والإيجاد)!

• ومَن الذي جعل في الكائنات غرائز تشبه نظام تشغيل بالغ التعقيد؟ ومن الذي هدى كل كائن لما يناسب طبيعته وحاجته وحاجة من يحيط به من الكائنات؟

• بل إن الإيثار والتضحية بالنفس التي نراها في صور من غرائز الكائنات الحية - كتضحية النحلات بأنفسهن في سبيل حماية ملكتهنّ - تعارض بصورة كلية منطق التفسير المادي القائم على الصراع للبقاء وعدم قيام الكائن الحي بما ينافي حاجة نجاته هو، بل إن هذه التفسيرات المادية المرتبطة بالصراع والبقاء تفقدنا المعاني الراقية وراء كثير من هذه الغرائز، كالرحمة والشفقة وغيرهما.

☒ ولا يمكن اختزالها في برنامج داخلي في الكائن الحي.

بل في بعض صور الغرائز إشارة واضحة إلى الإلهام والتوجيه ممن يعتني بالكائن.

وتأمل فيما يلي :

⇦ **تأمل** في الغرائز التي تحتاج إلى علم بأمور خارجية مثل اتجاهات الرياح وفصول السنة ودرجات الحرارة والتفرقة بين الأماكن بدقة، والعلم بالظروف المناخية والبيئية اللازمة لمعيشة الكائنات الحية أو الضرورية لوضع بيضها أو خروج صغارها منه، وغير ذلك من أمور تحتاج إلى علوم وقدرات لا تمتلكها هذه الكائنات الحية غير العاقلة مما يشير إلى وجود عناية خارجية وإلهام لها.

⇦ **وتأمل** في الكائن الحي الذي يهاجر لمسافات طويلة تصل أحيانا لآلاف الأميال، ويبدأ هجرته في وقت ثابت محدد سالكا طريقه الطويل الذي يبدو وكأنه يحفظه ويعرف وجهته، ليصل لمكان بعيد في الكرة الأرضية يحمل ظروفا مناخية مناسبة له بدون أن يجرب أماكن أخرى ويتيه ويتعب في البحث عن المكان المناسب له، وبدون أن يضل عن مكان هجرته، رغم أنه إذا انحرف في رحلته الطويلة بمقدار بسيط جدا عن مساره لوصل لمكان آخر تماما، ثم يبدأ طريق العودة في وقت منضبط ليرجع لنفس مكان هجرته الذي ابتعد عنه بآلاف الأميال.

فمَن الذي هداه إلى الهجرة في هذا الوقت ومن هداه إلى مكان هجرته الذي يناسبه؟ ومن الذي هداه للطريق الطويل الوعر؟ ومن هداه لوقت العودة للرجوع إلى مكانه الأصلي وعلمه أين هو؟

⇦ ونضيف على ما سبق ما نجده في الكائنات الحية من قدرة على التكيف سلوكيا وتغيير بعض صفاتها وطرق معيشتها إذا تغيرت بعض الظروف الخارجية المحيطة بها، وكل هذه أمور تشير إلى الرعاية والهداية ممن يتصف بالقدرة والعلم والحكمة.

⇦ **وتأمل** أيضا في تلك الغرائز التي لا علاقة لها بما يحتاجه الكائن الحي نفسه، وإنما بما يحتاجه غيره ومن يعيش معه في بيئته الخارجية من كائنات حية، كإنذار طائر الأوكسبيكر لبعض الحيوانات إذا رأى من يريد افتراسها، فمَن الذي هداه لهذا الفعل؟ ومَن الذي سخره ليحمي غيره من الحيوانات عناية بها وحفظا لها !؟

⇦ **وتأمل** في بعض الغرائز في كائنات عقيمة لا تورث صفاتها لغيرها كالنحلات الشغالات، ولها أفعالها المذهلة في مملكة النحل فطرة وبداهة، كرعايتها لليرقات وتضحيتها، ثم هي تموت ولا تورث هذه الغرائز لغيرها، وأمهاتها الملكات تعملن وظائف أخرى تماما !

فكل ما سبق يشير بالضرورة إلى ارتباط الغرائز عند الكائنات الحية بنوع من الهداية والتوجيه والإلهام لا يكون إلا من فاعل مختار.

ثم على فرض اختزالها في مكونات داخلية مبرمجة -رغم بعد هذا التفسير لما أشرنا له- فمَن الذي أوجدها ؟ ومن الذي ركبها في كل كائن بما يناسبه وما يحتاجه بهذا التعقيد البالغ؟

فهذا الاختزال لا يمكن أن يُكتفى به كتفسير لمصدر الغرائز ونشأتها، فهي مفتقرة لخالق متصف بالعلم والإرادة والقدرة، ركب هذه الغرائز في الكائن الحي بقدرته وعلمه السابق، وهداه برحمته إليها.

الغرائز مصدرها الله ﷻ

يتبيّن مما سبق أنّ الغريزة لا يمكن أن توجد إلا بإرادة خالق عليم حكيم فطر الكائنات الحية على هذه الغرائز وهداها لما تسد به حاجاتها وتؤمّن لها بقاءها واستمرارها وتنفع بني جنسها وغيرهم كذلك، فالغريزة أمرٌ وضعه الله تبارك وتعالى في الكائنات لتسوقها إلى سلوكيّات معقدة وذكيّة ومفيدة، لأنه

تبارك وتعالى هو الحكيم العليم اللّطيف والودود الذي ما كان ليترك خلقه ضائعين هائمين على وجوههم في العالم يحتاجون فلا يعرفون كيف يسدون حاجتهم، وما كان ليخلقهم عبثا -حاشاه سبحانه-.

وهذا ما قرّره القرآن في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١]، فبتلك الكلمات الموجزة الجامعة وصف نبي الله موسى عليه السّلام ربّه تبارك وتعالى، فهو الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوقٍ خلقه الجسمي اللائق به، الدال على حسن صنعة من خلقه؛ ثم هدى كل مخلوقٍ إلى ما خلقه له من جلب منافع ودفع مضار كما يناسب بنيته وحاجته وبيئته وما سُخِّر له. ومثل ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[٢]، فالذي خلق المخلوقات وأعطاها خلقها الحسن ومن ثم هداها لمصالحها وعلَّمها طرق نجاتها وانتفاعها هو الرب على الحقيقة ﷻ.

وبهذا يتضح لنا كيف تدل الغرائز بالضرورة على وجود الله ﷻ.

الغرائز تعرفنا على صفات الله ﷻ

إن وجود الغرائز ليس دليلا على وجود الخالق ﷻ فحسب، بل يدل أيضا على صفات الله عز وجل، فبتأملها يتعرف العبد على مولاه، ويزداد حبا وتعظيما له، ويتعلق قلبه به وحده مكتفيا به ﷻ .

- فهداية الكائنات لكل ما تحتاجه تدل على الله **الهادي العليم** بحاجة كل مخلوق وموقعه وقدراته التي وهبت له، وهو الذي بنى فيه خططًا محكمة لسد تلك الحاجات وإعانة غيره على حاجاتهم كذلك، وكل ذلك يسير بنظام متقن يتسق فيه عمل كل مخلوق مع غيره فيعينه ويستعين به، فالنحل حين يصنع

---

[١] طه: ٥٠.
[٢] السجدة: ٧.

العسل ينفع نفسه وبني جنسه ويقدم للبشر منتجه ويلقح الزهور ويساهم في دورة حياتها أيضا. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

- وتعرفنا الغرائز على الله تبارك وتعالى **القيوم على عباده الحفيظ**، الذي خلق كل شيء ولم يتركه هملًا سبحانه، بل هو قائم على شؤون خلقه يدبر أمرهم ويكفيهم حاجتهم ويخلق لهم ما به تستقيم حياتهم من وسائل وأدوات، ويلهمهم طريقة التعامل معها واستصلاحها.

وها هو القندس البارع الصبور يقدم لنا خير مثال على ذلك، فمَن علمه سوى ربه كيف ينشئ عشه ويبني سدا منيعا يحميه من المياه الجارية وكأنه مهندس بارع يعرف كيفية بناء السدود والمواد التي يحتاجها في البناء؟ ومَن هداه سوى الله لمعرفة ما يصمد به السد مع شدة المياه واتجاه الرياح! حتى وأنه يبنيه مستقيما في العادة إلا إذا كان الماء شديدا فيبنيه مقوسا ليواجه سطحه المحدب شدة اندفاع الماء وكأنه على علم بهذه القوانين والحسابات الدقيقة؟ مَن علمه سوى الله كيف يحافظ على مستوى المياه ثابتا بأن يجعل كمية المياه الخارجة من السد تساوي تقريبا الداخلة له مع التيار؟ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٢]، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[٣].

- وتتجلى **صفة الرحمة** في مظاهر الرحمة بين الخلائق وما هي إلا جزء من مئة رحمة من رحمات المولى، وتظهر كذلك في عنايته سبحانه بأصغر وأضعف مخلوقاته، من الطير في أعشاشها إلى النمل في جحورها، فالنمل يتمسك

---

[١] النحل: ٦٨ – ٦٩.
[٢] الرعد: ٣٣.
[٣] هود: ٥٧.

بالحياة ويخزن طعام الشتاء في فصل الصيف رغم شدة مشقة ذلك وصعوبته عليه، والطير يحاول منذ قدرته على الحركة إلقاء نفسه من العش ليجرب الطيران الذي يعلم بغريزته أنه ولا شك سيتمكن منه، بل أثبتت التجارب أنّ الطفل الذي يحبس عن الطيران حتى يكبر لا يلبث أن يطير إذا أطلق سراحه دون أن يُعلّم ذلك، وصدق تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[١].

وإذا كانت هذه رحمته وعنايته سبحانه بأقل مخلوقاته شأنا فكيف بالإنسان وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٢]، وممّا منّ الله به على الإنسان من غرائز هو الميل للأنس بالآخرين، سواء كانوا بشرًا مثله أو حيوانات أو غيبيات، وقد كان السلف الصالح يعدون أفضل الثمرات التي حصلوها من التزامهم شرع الله هي الأنس به سبحانه.

ومن تمام رحمته سبحانه أن تفضل على الإنسان بالقدرة على التحكم بغريزته وتحديد مسار فعله معها أو ضدها، فهو قادر على تدريب نفسه على كبت غضبه، وغض بصره، والزهد بمتع الدنيا التي هو مجبول على التعلق بها وتطلبها، وكل ذلك مما يدعوه الالتزام بشرع الله ليسمو إليه بروحه فوق غرائزه الطبيعية، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٣].

---

[١] الملك: ١٩.
[٢] الإسراء: ٧٠.
[٣] آل عمران: ١٤.

ورغم أن الله تبارك وتعالى لم يوجد فينا غريزة إلا وأوجد لها منفذا شرعيا صحيحا، إلا أنه أراد لنا أن نسمو فوق العيش لمجرد إشباع الحاجات والانقياد وراء الغرائز، فنعلو فوق الحيوان ونحيا لرضا الرحمن.

- وبعض المشاهد تعرفنا على الله **القهار القادر** على تسخير بعض الكائنات لبعض، القادر على تغيير خصائصها وجبلتها عناية بمخلوق آخر، كالرحمة والشفقة التي نشاهدها في أفعال الكائنات المفترسة تجاه صغارها، أو سكونها وعدم افتراسها لكائنات ضعيفة – كعدم افتراس التمساح لطائر الزقزاق الذي يتغذى على الطعام بين أسنانه- في مشهد يجعلنا نتساءل، كيف سخر الله هذا الطير ولم يخف من التمساح؟ وكيف تركه التمساح ولم يفترسه دونا عن بقية الكائنات؟ ، وما هذا إلا هداية وإلهام من الله القهار مالك كل شيء ومليكه.

ويدلنا اختلاف صور هدايات الحيوانات، مثل اختلاف صور التخفي من العدو من كائن لآخر على قدرة الله وإبداعه في خلقه .. فسبحان الله العظيم .

وها نحن نصل إلى نهاية رحلتنا في هذا الدليل البديع، وقد وقفنا معه على نواحٍ كثيرة من قدرة وعظمة اللطيف الخبير، عالم الغيب والشهادة الذي لا يغيب عن كمال علمه السر وأخفى، ولا يقصر عن كمال سمعه مناداة ولا نجوى.

فسبحان الذي له الخلق والأمر، يدبره من السماء إلى الأرض، ولا يغيب عن كمال تدبيره مخلوق مهما صغر، الولي الحميد الذي له الأمر وإليه المصير.

مراجع استُفيد منها في المقال :

- براهين وجود الله في العقل والنفس والعلم للدكتور سامي عامري.
- دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد للدكتور هشام عزمي.
- غريزة أم تقدير إلهى لـ/شوقي أبو خليل.
- شموع النهار لـ / عبد الله العجيري.

الكاتب : هادي صبري - طارق عنقاوي
مراجعة: ريهام سامح - سمر لطفي

الدليل العاشر من أدلة وجود الله ﷻ: دليل أصالة التدين

تقدم معنا دلائل عدة تَبيَّن أن الله تعالى أودع الدلائل القاطعة في كل ما نراه حولنا على أنه الخالق العظيم العليم الحكيم، بل أودع دلائل فطرية في نفوسنا يدلنا التأمل فيها على وجوده سبحانه واتصافه بصفات الكمال، كما تقدم معنا في دلائل الوعي، والقيم المطلقة، والجمال، والإرادة الحرة.

ولندخل الآن داخل النفس البشرية بصورة أعمق.. لنتأمل أكثر في واحدة من دلائل الفطرة التي أودعها الله سبحانه بين جنبينا.. إنّها فطرية تديّن هذه النفس، أو ما يمكن أن نسمّيه أصالة تدينها.

(١) هل التدين فطرة أصيلة في النفس البشرية؟

- **لنتأمل أولًا في داخل النفس البشرية:**

⇦ **حاجة كل نفس بشرية إلى الخضوع لمن هو متصف بالكمال .**

من منّا لا يجد في نفسه رغبة قوية ودافعا فطريًا وحاجة إلى ركن وثيق يلجأ إليه.. يخضع له طوعا، ويعظمه محبة.. يعلق به قلبه في الرخاء، ويلجأ إليه عند الشدائد...

- إنسان تضيق به الحياة.. يغلق الناس أبوابهم في وجهه، فلا يجد قلبه مخرجا عندها إلا أن يلجأ إلى عظيم رحيم كريم قدير.. لا يطرده عن بابه، ولا يتخلى عنه في مصابه، يطلب منه حاجته فيعطيه، ويبثه شكواه فيرحمه.

- وآخر يركب البحر فيداهمه الموج، أو يركب طائرة فتضطرب به شيئا يسيرا.. فلا يملك أن يمنع قلبه من التوجه إلى القوي القريب المجيب، فيطلب منه النجاة والعون.

لو تأملت في نفسك لوجدت هذا المعنى حاضرا بقوة، ولو تأملت أحوال الناس لوجدت هذا حاضرا كذلك، فالنفس البشرية لا بد لها من شيء تخضع له وتتعلق به..

وهذا الشعور برهان قوي على تجذر وأصالة التدين، ووجود شعور الافتقار لعبودية الخالق والفرار إليه في كل نفس بشرية.

⇦ إلحاح الأسئلة الوجودية.

تلك الأسئلة الكبرى التي تولد معنا وتعيش داخلنا: من نحن؟ كيف وُجدنا في هذا الكون ؟ لماذا نحن فيه؟ ما الغاية من خلقنا وخلق هذا الكون العظيم؟ إلى أين سنذهب بعد الموت؟

أسئلة كفيلة بأن تنغص الحياة وتقض المضاجع وتؤرق الأجفان إذا لم تحظ بالجواب الشافي.. أسئلة حيرت الكثيرين قديما وحديثا... أسئلة يشترك فيها جميع البشر وتلح على من يجهل جوابها إلحاحا شديدا؛ مما يدل على فطريتها ووجود جواب عليها، ويدل على أننا لم نُخلق عبثا.

إن هذه الأسئلة تدفع الإنسان دفعا للبحث عن الخالق والدين الحق الذي سيُذهب عنه هذا التحيّر بالجواب العقلي الفطري الصحيح الشافي.

⇦ غريزة التطلع.

إن غريزة التطلع المشتركة بين البشر بمعناها العميق وبما فيها من التوجه والترقب والطموح والتشوق والتمني... من محركات التدين ودلائله، ومن المبادئ التي يقوم عليها الإيمان والعلم، فالتطلّع إلى الكمال والتطلع إلى الغيب..

والتشوق إلى المجهول.. والتوجه نحو الاستطلاع.. والطموح إلى الاكتشاف.. والصبو إلى الحقيقة.. لا بد إن تبعه الإنسان بصدق أن يصل به إلى أسمى المعارف وغاية الغايات، ووجود هذه الغريزة أمر حقيقي، بإنكاره ينكر الإنسان جزءا منه، وإن شئت فقل: ينكر كيانه وذاته.

إن وجود عنصر نبيل في الإنسان، متطلعٌ للبقاء والوجود يدل على استحالة أن يكون الإنسان خُلق سدى ليعيش لأجل الدنيا ويفنى بعد الموت.

ويدل وجود التطلع الغريزي على أصالة التدين وفطريته؛ لأن هذه الغريزة لن يلبي حاجتها مَن يقف عند حدود المحسوسات والماديات ويُغرق نفسه في دنيا الفناء؛ لأنه بهذا يخالف الفطرة الإنسانية التي تتطلع إلى الكمال وتتشوف إلى الخلود والبقاء وترفض النظرة العبثية للدنيا لما تجده من شعور غائي ملح، ولن تستقر وتسكن نفس الإنسان المتطلعة إلا بالتدين وما فيه من عبودية لله عز وجل المتصف بالكمال المطلق، وما فيه من الوعد بالخلود في جنات النعيم.

- **ثانيًا : لنلتفت إلى الخلف، وننظر في التاريخ.**

تعال معنا نلقي نظرة على تلك الأمم الغابرة.. كم تقدم قبلنا من أمم، وكم هلك قبلنا من قرون، لو أننا جمعنا كل هؤلاء في لوحة واحدة، ثم ألقينا عليها نظرة متفحصة فإننا سوف نجد عامة تلك الأمم قد أقرت بوجود إله عظيم كامل الصفات واشتركت في التدين، وإنما ضل كثير من تلك الأمم من جهة أن أخطأوا الطريق الصحيحة الموصلة إلى الله ﷻ، وهي إخلاص الدين لله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ومتابعة رسله.

لو تأملنا تاريخ البشرية لوجدنا فطرتهم تحدوهم إلى البحث عن طريق يصلون به إلى الخالق .. لقد اختلفت أفكارهم، وتباينت ثقافاتهم، وتفاوتت

حضاراتهم.. أمم قريبة منا، وأخرى غائرة في أعماق التاريخ.. إن الذي جعلهم يبحثون عن طريق يوصلهم إلى الخالق.. هو أنهم بشر مخلوقون يتوقون إلى خالقهم وحسب .. فالتدين هو غريزة إنسانية، راجعة إلى تكوين البشر.. حالة سطرها المؤرخون، وتأملها الباحثون..

يقول المؤرخ الإغريقي بلوتارك: "من الممكن أن نجد مدنا بلا أسوار، وبلا ملوك، وبلا ثروة، وبلا آداب، وبلا مسارح، ولكن لم نجد قط مدينة بلا معبد يمارس فيه الإنسان العبادة"[١].

ويقول المؤرخ الشهير ول ديورانت في كتابة قصة الحضارة: "ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعًا اعتقادًا سليمًا، وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية"[٢].

وهكذا لو تأملت في القصص القرآني الذي حكى لنا جملة من أحوال تلك الأمم، لوجدتها جميعا أقرت بوجود الخالق، ولكنهم أعرضوا عن هداية خالقهم، فصاروا عبيدا لغيره، فأرسل الله سبحانه إليهم الرسل ليصححوا مسارهم قائلين لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٣]، فمنهم من اهتدى واستجاب للرسل، ومنهم من أعرض فأغوتهم الشياطين، أو أضلهم كبراؤهم.

وهذا الإجماع على وجود التدين والخضوع لإله عبر التاريخ يدل على فطرية التدين وأصالته في النفس البشرية.

⇦ أصالة وفطرية التدين.

إن تأمل كل ما سبق من شواهد في الأمم التي اشتركت جميعها في التدين والافتقار للخالق على مر العصور، ومن شواهد في النفس البشرية التي لا

---

[١] ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢، ٣٩١).
[٢] قصة الحضارة (١، ٩٩)
[٣] الأعراف: ٥٩.

تسكن إلا بالتدين والعبودية وتتطلع دوما للإله المتصف بالكمال وتتوق إلى معرفة مّن خالقها ولماذا خلقها؛ يوقفك على حقيقة عظيمة: وهي أصالة وفطرية التدين وفطرية الخضوع لإله بالعبودية.

(٢) من يستحق الخضوع له ؟

طالما وُجدت فطرية التدين في المجتمعات كافة، ولن تسكن نفس الإنسان إلا بركونها وخضوعها للإله، فحري بنا التأمل في هذا السؤال:

من يستحق الخضوع له، مَن هو هذا الإله الذي تتوق النفس للخضوع إليه وعبوديته؟

☒ **محال أن يكون إنسانًا**، فالإنسان مخلوق ضعيف، ناقص كسائر المخلوقات، ناقص في علمه.. فعلمه يلحقه الجهل، وناقص في عدله.. فعدله قد يغلبه الظلم، وناقص في رحمته.. فرحمته قد تدركها الشدة التي لا تكون في موضعها، وناقص في حكمته.. فقد يلحق حكمته الحيرة والاضطراب، بل إنه محتاج فقير إلى غيره في أصل وجوده.. فكيف -إذن- يمكن لإنسان هذه حاله أن يجد الاستقرار إذا تعلق قلبه وخضع لمخلوق مثله في نقصه وعجزه؟!

☑ **هذا التعلق لا ينبغي إلا أن يكون بإله كامل الصفات**، كامل في قدرته وقوته، كامل في علمه وحكمته، كامل في عدله ورحمته.. فعقل الإنسان الصحيح وفطرته السليمة تأبى أن تخضع لمخلوق ناقص؛ لأنه إذا تعلق به وخضع له بقي في حيرة واضطراب، فمن هو المخلوق الذي لا يلحق قوتَه العجز؟! ولا يلحق حكمتَه الحيرة والخطأ؟! ولا يلحق علمَه الجهل؟! ولا يلحق رحمتَه وعدلَه إيثار محبته لنفسه؟! بل سيزداد تشتتا وحيرة بهذا الخضوع والعبودية، ولن تسكن نفسه ولن يلبي حاجتها وفطرية التدين المغروسة فيها.

☒ وإذا كان الإنسان العاقل الواعي لا يصلح لهذا الخضوع، **فمن باب أولى ألا يصلح لذلك ما هو دونه من المعبودات الباطلة الناقصة**، كالأصنام التي يصنعها المشرك بيديه، وهي لا تستجيب له ولا تدري عنه، ولقد نعى الله عز وجل على المشركين أن تعلقوا وخضعوا لأصنامهم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[١]، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٢]، وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام مخاطبا أباه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[٣].

☑ **هذا الخضوع لا بد أن يكون لله عزوجل المتصف بالكمال المطلق**، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الحي القيوم، هو الله الخالق العظيم مَن لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يشغله سمع عن سمع، القادر على كل شيء، المجيب لمن دعاه، فاستحق بذلك أن يلجأ إليه العبد ويخضع له ويعبده وحده لا شريك له، ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٤]، هذا العبد الذي لن تستقر نفسه إلا بعبودية خالقه، يقول ابن القيم رحمه الله: "إن في القلب شعث : لا يلمه إلا الإقبال على الله وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوب ، وفيه فاقة: لا يسدها الا محبته ودوام ذكره والاخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا!!"[٥].

إن الخضوع الذي يسعى إليه الإنسان، ليس كخضوع الرياح والكواكب لأمره فحسب، بل هو خضوع يسير الإنسان إليه مختارا ليجد فيه نفسه،

---

[١] النحل: ٢٠- ٢١.
[٢] الأعراف: ١٩٧ – ١٩٨.
[٣] مريم: ٤٢.
[٤] النمل: ٦٢.
[٥] مدارج السالكين (٣ ، ١٦٤).

وليسلك من خلاله الطريق المستقيم، فيحصّل الحياة الطيبة في الدنيا، والفوز في الآخرة.

هو خضوع يخلص الإنسان من اليأس والقنوط، لأنه يعلم علما قاطعا يقينيا أن كل ما يراه حوله إنما هو خاضع للخالق العظيم، فلا يبقى معه الإنسان أسير الأسباب بمجردها، بل يتجاوز ذلك إلى التعلق بالذي يدبر الأمور ويسبب الأسباب، بالحكيم العليم الرحيم، الذي إذا دُعي أجاب، وإذا سئل أعطى، وإذا استجير أجار، ، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطلُبُهُ حَثيثًا وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمرِهِ أَلا لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ العالَمينَ * ادعوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وَخُفيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُعتَدينَ﴾[١].

⇦ التوحيد.

وهذا الخضوع يجب أن يكون لله وحده، وإلا لبقي الإنسان في تيه وحيرة واضطراب، يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

لقد فطر الله ﷻ عباده على التوجه إلى خالق واحد، وعلى تعظيمه وإجلاله، فإذا سلمت فطرهم لجأوا إليه وحده، فدين التوحيد هو الفطرة البشرية الأصيلة. قال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]، ولا يمكن أن يقبل العقل السليم سواه.. ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٤]، ولكن قد تنحرف النفوس عن الفطرة ببعض المؤثرات المضللة، وعندها يتيه المنحرفون في سبل الشرك المتشعبة، فمن عابد للأصنام، ومن لائذ بعظماء من

---

[١] الأعراف: ٥٤ ـ ٥٥.
[٢] الزمر: ٢٩.
[٣] الروم: ٣٠.
[٤] يوسف: ٣٩.

البشر، ومن عاشق لمحبوب أو عابد للمال، ومن معظم لنفسه وعابد لهواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[١].

ومن رحمته سبحانه أنّه أرسل الرسل وأنزل الكتب بالبينات ليعيد من انحرف إلى دين الفطرة، فاستجاب منهم أناس للرسل، ومنهم من حقت عليه الضلالة بسبب إعراضه وكبره.

فالبشر كانوا موحدين حنفاء، يحبون خالقهم، ويتذللون إليه، ويرجون رحمته.. يعبدونه وحده.. ثم غلب الجهل والهوى على فئام منهم وأضلهم الشيطان.. ولكن نفوسهم تقر بهذه الحقيقة ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢]، وأغلبهم مع شركه وعبادته للأصنام أو البشر يعرف أن هناك خالقًا واحدًا أعلى من كل هذه المعبودات الباطلة، حتى وأن أعتى الجبابرة أقر بالحقيقة في لحظة صاغرا ذليلا ، فها هو فرعون عند معاينة الغرق يقرّ كما حكى الله تعالى عنه : ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، كحال الكافر الذي يجد نفسه تفزع لله ﷻ وحده اضطرارا عند الشدائد وفي أحلك اللحظات، يجد نفسه مؤمنا به سبحانه متيقنا من وجوده تمام اليقين ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[٤] ..

وبهذا يتضح لدينا أن فطرية التدين وأصالتها في النفس البشرية تدل على وجود الخالق ووحدانيته من ناحيتين:

---

[١] الجاثية: ٢٣.
[٢] النمل: ١٤.
[٣] يونس: ٩٠.
[٤] يونس: ٢٢.

١- من ناحية أنها تثبت ضرورة خضوع الإنسان وعبوديته لإله، ثم ترشدنا إلى أن هذا الإله يجب أن يكون متصفا بالكمال وليس هذا سوى الله الخالق جل علاه.

٢- ومن ناحية دلالة وجود مثل هذا المعنى الغريزي في نفوس البشر جميعا، مما يدل على أن هناك خالقا غرز ذلك في كيانهم وفطرهم عليه.

(٣) لا تخالف فطرتك ! اخضع لخالقك

والآن .. إذا اتضحت لك هذه الصورة، وأبصرت الحقيقة ماثلة أمامك، فاعلم أن الدنيا بكل زخرفها لو اجتمعت للإنسان لما سدت مسد الدين، ولما أغنته عن الوحي المبين... مساحات خضراء، وعيشة رغيدة غناء، ناطحات سحاب، ملذات متاحة.. لم تغن أصحابها عن الدين الحق، وما زادتهم دنياهم إلا تيها وضياعا، لأن النفس البشرية واحدة قديما وحديثا، وحاجتها إلى إله كامل الصفات لتتعلق به موجودة الآن كما كانت موجودة في العصور الغابرة.. الإنسان مهما تقدم وتحضر، ومهما طغى وتجبر، فإنه يبقى إنسانا فقيرا محتاجا إلى الله العظيم.

بل إن الإنسان كلما تقدم في البحث العلمي تكشفت له جوانب ضعفه وجهله وحاجته أكثر وأكثر، وكلما تقدم في العلوم الطبيعية وجد نفسه أكثر عجزا عن تفسير الأمور تفسيرا كاملا بالتفسيرات المادية.. التي غاية ما تكشفه التفسيرات المادية هي أن تبين لنا ترتب فعل على آخر، أو حدث على آخر، ولا نصيب لها من إظهار الحِكم والغايات.

ماذا تغني التفسيرات المادية -ولو كثرت- عن التفسير الحقيقي للظواهر، التفسير التي يعطينا الحقيقة الكاملة.. هذه الأسباب والتفسيرات المادية.. ما علمنا منها وما لم نعلم.. كلها خاضعة لإرادة الله وقدرته.

لقد انتهى العلم الطبيعي إلى إشعال غريزة التدين لا إلى إخمادها، وإلى زيادة التطلع والترقب لا إلى قلته.. فمن كان لبيبا عاقلا متجردا عن هواه علم أن الإنسان فقير محتاج مهما ظنّ أنّه علا، ومهما اعتد بنفسه...

إنّ الميل إلى التدين هو أرقى ميول النفس، وسيبقى يلازم الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح، وسيزداد فيه كلما علت مداركه، فالعقل الواعي هو الذي يتطلب حقائق الأشياء والغايات من ورائها، وهو الذي يسعى لتجاوز الحدود المادية، ويسعى لمعرفة الخيط الناظم للكون كله، وسيبقى لذلك متطلعا مترقبا متشوقا، لا تكفيه العلوم المادية كلها، حتى يعرف الحقيقة الكبرى.

⇦ **إنّها الفطرة**، الحقيقة الأصيلة الضاربة في القدم، وصدق الله ﷻ إذ يقول مبيّنًا أصالتها: ﴿ وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَني آدَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشهَدَهُم عَلى أَنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِّكُم قالوا بَلى شَهِدنا أَن تَقولوا يَومَ القِيامَةِ إِنّا كُنّا عَن هذا غافِلينَ ﴾[١].

وقال ﷺ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»[٢].

---

[١] الأعراف: ١٧٢.

[٢] صحيح مسلم (٢٨٦٥).

مراجع استُفيد منها في المقال :

- ظاهرة نقد الدين للدكتور سلطان العميري.
- الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان للدكتور محمد عبد الله دراز.

الكاتب : هادي صبري
مراجعة: طارق عنقاوي

الكمال الإلهي، أدلته وآثاره

وبعد هذه الرحلة الرائقة مع البراهين الدالة على وجود الخالق سبحانه، فإنه ينبغي لنا أن نعلم أن مجمل ما تقدم من أدلة لا يدل فقط على وجود الخالق، بل إنها تحمل كذلك دلالة على أن هذا الخالق متصف بالكمال المطلق؛ فما من صفة كمال إلا وهو متصف بها من غير نقص...

فالخالق الذي خلق هذا الكون بعد عدمه، وأبدع الخلق وأحكمه، وبث فيه الحياة ذات الأسرار العجيبة، لا بد أن يكون متصفا بصفات الكمال، وأن يكون متصفا بها على وجه لا نقص فيه؛ فلا بد أن يكون حيا عليما قديرا حكيما، متصفا بالإرادة، لا شريك له في خلقه ولا ملكه ولا تدبيره.

كما أننا إذا تأملنا ما أودعه الخالق ﷻ في النفس البشرية من الغرائز كأصالة التدين، والإرادة الحرة، والقدرات العقلية... فإننا نجد أنفسنا أمام براهين دالة على أن هذا الخالق -بالإضافة إلى ما تقدم- متصف بالرحمة العامة الشاملة، والعدل التام الذي لا يشوبه ظلم؛ وذلك لما أودعه سبحانه بين جنباتنا من أدلة مرشدة، وأحوال مشاهدة متجددة، تهدينا إلى الصراط المستقيم، وتوضح لنا اتجاه الطريق القويم.

أولًا: هدايات الكمال الإلهي

إن التأمل في معنى الكمال الإلهي من أعظم ما يجعل العبد محبا للخالق سبحانه، دائم الخضوع لجلاله، معلقا قلبه به مخلصا له.. وكما أن تأمل الكمال الإلهي يؤثر في قلب الإنسان، فإنه يؤثر في سلوكه واستقامته.. وكيف

لا يصل العبد إلى هذه الحال الإيمانية السامية، إذا تأمل في **أهم معاني الكمال الإلهي**؟! ، **ومنها :**

١- أن الله تعالى متصف بصفات الكمال على أكمل وجه، فكل صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، فإن الخالق سبحانه متصف بها على جهة الكمال من غير نقص؛ فالحياة -مثلا- صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، والله تعالى متصف بالحياة الكاملة .. حياة أزلية أبدية، لم تسبق بعدم، ولا يلحقها فناء، ولا يلحقها أي وجه من وجوه النقص الأخرى.. ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[١].

وهذا يقال كذلك في باقي صفات الكمال، كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعدل والرحمة.. فكل هذه الصفات يتصف الخالق ﷻ بها على أكمل وجه.

٢- أن اتصاف الخالق سبحانه بهذه الصفات لا بد أن يكون على وجه الاتّساق بينها؛ فلا تعارض ولا تناقض في اتصافه بهذه الصفات جميعا.. فصفات الكمال لا تتعارض في حق الخالق سبحانه، لأنه يتصف بها على وجه الكمال.

- فاتصافه ﷻ بالعدل على أكمل وجه يقتضي إيقاع العقوبة على مستحقها، وهذا يتّسق مع صفة الرحمة؛ فالرحمة لا تعني عدم معاقبة من يستحق العقوبة.

- واتصافه تعالى بالقدرة التامة لا يتنافى مع اتصافه بالحكمة الكاملة البالغة؛ فعدم فعل الله تعالى بعض الأمور في بعض الأحيان لا يعني نقصا في

---

[١] البقرة: ٢٥٥.

القدرة، بل هذا راجع إلى حكمة الله البالغة التي تقتضي عدم فعل بعض الأفعال في بعض الأحوال.

وتأمل هذه الجهة من جهات الكمال من أعظم ما يبين الكمال الإلهي: وذلك لأن البشر يسعون دائما إلى التحلي بصفات الكمال، ولكنهم لا ينفكون عن وجود نقص من جهة تغليب صفة من الصفات الحسنة على صفة أخرى، وسبب هذا أن البشر لا يمكن أن يتصفوا بصفات الكمال على وجه لا نقص فيه، بل النقص ملازم لهم.

٣- ومن أعظم المعاني المتعلقة بالكمال الإلهي: أن يدرك الإنسان أن الخالق سبحانه غني عما سواه: فلا يحتاج في كماله إلى المخلوقات، بل كل المخلوقات محتاجة إليه، مفتقرة إلى عونه، لا تقوم إلا بحوله وقوته.

وذلك أن من أهم ما يترتب على اتصافه سبحانه بصفات الكمال على أكمل وجه: أن كماله ذاتي، لم يكتسبه من غيره؛ فكما أن وجود الخالق سبحانه لا افتقار فيه إلى غيره، فكماله كذلك لا افتقار فيه إلى غيره، وكما أن المخلوقات مفتقرة في وجودها إلى الخالق سبحانه، فإنه مفتقرة في كمالها المناسب لها إلى الخالق ﷻ.

وفي إجمال هذه المعاني يقول عن ابن عباس رضي الله عنهما: "الصمد هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه، والغني الذي كمل في غناه والجبار الذي كمل في جبروته، والعالم الذي كمل في علمه، والحكيم الذي كمل في حكمته وهو الله سبحانه، وهذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفوء، ولا يساويه أحد"[١].

[١] أخرجه عبدالرزاق في التفسير: (٢/ ٤٠٧). والطبري في تفسيره: (٣٠/ ٣٤٦).

إن هذه المعاني العظيمة التي تبين لنا معنى الكمال الإلهي تتوافق مع الفطرة السليمة؛ وهي من المعاني الضرورية التي لا يستطيع أحد التهرب منها.. فكيف يمكن أن يكون الخالق الذي أوجد هذا الكون المتقن غير متصف بصفات الكمال على الوجه الأكمل... إذا لاختل نظام الكون، ولما استقر للإنسان عيش على هذه الأرض... ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[١].

إذن فنحن أمام حقيقة مرتبطة بحقيقة وجود الخالق، بل لا يمكن أن نفصل بينها وبين حقيقة وجوده..

ثانيًا: أدلة الكمال الإلهي

ولمزيد من ترسيخ هذا المعنى فلنتأمل معا بعض الأدلة المهمة الدالة على أن الخالق لا بد أن يتصف بصفات الكمال:

- **الدليل الأول:** وهو دليل إجمالي عام، قائم على الفهم الصحيح لوجود الخالق سبحانه.

فقد تقدم معنا في دليل الخلق والإيجاد أن وجوده سبحانه لا يفتقر إلى سبب، لأننا نرى حولنا مخلوقات وجدت بعد أن لم تكن موجودة، أي أنها افتقرت في وجودها إلى غيرها؛ فإذا استمرت سلسلة الافتقار هذه إلى ما لا نهاية، بحيث لا يوجد إلا مخلوق مفتقر في وجوده إلى مخلوق مفتقر آخر، فهذا يلزم منه عدم وجود المخلوقات؛ لأنّ ذلك التسلسل يعني عدم وجود سبب أوّل لها ولكن هذه المخلوقات موجودة، فدل على أن هناك خالقا غير محتاج في وجوده إلى أحد قد بدأ خلق هذه المخلوقات.

---

[١] فاطر: ٤١.

ومن اللوازم التي تترتب على هذا الأصل الراسخ:

أن الكمال الإلهي لا بد أن يكون من ذات الخالق سبحانه، لا يفتقر فيه إلى غيره؛ وإلاّ كان محتاجًا مفتقرًا تعالى عن ذلك، ثم إنّنا نرى أن الخلق ناقصون، يحتاجون إلى من يكملهم من صفات كمال المخلوقين التي تليق بهم، فكما أنهم مفتقرون في وجودهم إلى خالق غير مفتقر، فإنهم مفتقرون فيما يتصفون به من صفات كمال مناسبة لهم إلى خالق متصف بالكمال المطلق، غير محتاج في كماله إلى أحد، وإلا لما رأينا اتصاف الخلق بشيء من صفات الكمال المناسبة لهم.

إذن فطبيعة الوجود الإلهي تقتضي أنه كامل الصفات؛ لأنه لا يحتاج لأحدٍ ولم يفتقر لأحد في وجوده ولا صفاته ولا فعله.. وهذا هو معنى اسم الله تعالى (القيوم)، فإنه لا يحتاج في وجوده ولا في كماله إلى المخلوقات، والمخلوقات مفتقرة في وجودها وكمالها إليه سبحانه.

- **الدليل الثاني:** وهو دليل تفصيلي، نتأمل من خلاله بعض المظاهر التي نراها حولنا، والتي تدل يقينا على أن الخالق لا بد أن يتصف بصفات الكمال على وجه لا نقص فيه، ومن تلك الصفات:

١. **كمال الاستغناء والقيومية**؛ فخلق المخلوقات بعد عدمها لا يمكن أن يكون مع احتياج الخالق إلى غيره، فإنه لو احتاج إلى غيره وكان ذلك الغير محتاجا للزم من ذلك عدم وجود شيء كما سبق بيانه.

٢. **كمال الحياة**؛ لأن خلق المخلوقات لا يكون مع الموت، بل لا يكون مع حياة ناقصة.

٣. **كمال القدرة**؛ لأن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود لا يمكن مع القدرة الناقصة، فضلا عن العجز.

٤. **كمال العلم والحكمة**؛ فخلق المخلوقات على الوجه الذي نراه لا يمكن أن يكون مع علم ناقص، أو حكمة غير تامة.

٥. **الإرادة النافذة والمشيئة التامة**؛ وهذا شرط في الأفعال عموما، كما أن وجود المخلوقات على كيفية معينة وهيئة معينة وشكل معين، بحيث يتميز بعضها عن بعض، يدل على الإرادة والمشيئة.

٦. **الرحمة**؛ وذلك لما نرى من إنعام الخالق على خلقه بأنواع النعم، كالإنعام بالأرزاق، وتيسير العيش على هذه الأرض.

- **الدليل الثالث:** وهو دليل قائم على أصل عقلي يسلم به البشر كلهم، وهو أنه يستحيل عقلا أن يجتمع أمران متناقضان في محل واحد، كما يستحيل أن يخلو منهما في وقت واحد، بل لا بد من اتصافه بأحد الأمرين.

وتطبيق هذه القاعدة هنا يكون في صفات الكمال التي لها ضد؛ فإن الله تعالى إذا لم يكن متصفا بصفة الكمال، فإنه يلزم أن يكون متصفا بضدها من صفات النقص؛ وهذا أمر لا يتفق مع الفطرة السليمة، ويتناقض مع ما نراه من إتقان الخلق.

فالله سبحانه إذا لم يكن متصفا بالحياة، فإنه يلزم أن يكون متصفا بالموت؛ لأن الموت والحياة نقيضان، لا يمكن أن يجتمعا في محل واحد، كما لا يمكن أن يخلو محل واحد منها في وقت واحد، بل لا بد من وجود أحدهما.. وبما أن اتصاف الله تعالى بالموت مستحيل، لأنه خلق الخلق، تعين أن يكون سبحانه متصفا بصفة الحياة. ومثل هذا يقال في صفات العلم، والسمع، والبصر، والقدرة، ونحوها من الصفات.

- **الدليل الرابع:** استحالة أن يكون المخلوق أكمل من الخالق أو مساويًا له، بل وجود الخالق أكمل من المخلوق في كل الأحوال؛ وهذه نتيجة لازمة لكون

وجود المخلوق تابعا لوجود الخالق، محتاجا إليه، وبالتالي فلا يمكن أن يكون مساويًا لخالقه لأنه مفتقر إليه، والمفتقر إلى الشيء لا يساويه، فضلًا على أن يكون أكمل منه.

وتأمل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[١]؛ فإن المثل الأعلى هو الوصف الأكمل والأفضل والأجل، فيلزم من ذلك أن يكون الله تعالى أكمل من كل المخلوقات.

ومن المعاني المتعلقة بهذا الدليل: أن الله تعالى هو الذي أعطى صفة الكمال للمخلوق، وبالتالي فالخالق أولى بالاتصاف بها.. كما أن كل كمال في المخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالخالق أولى به، وكل ما تنزه عنه المخلوق من صفات نقص لا كمل فيها بوجهٍ فالخالق أولى بالتنزه عنها.

وتأمل في ذلك ما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ رأى جارية تبحث عن ولدها في السبي فلما رأته ألقمته ثديها فقال النبي ﷺ للصحابة: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟». قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[٢].

ثالثًا: الكمال الإلهي وأصول الإيمان الأخرى

وقبل أن نغادر الحديث عن هذه المعاني العظيمة، والتي تجعل قلب الإنسان معلقا بخالقه، لا بد أن نشير إلى ارتباط موضوع الكمال الإلهي بأصول إيمانية أخرى، ولنتناول الحديث هنا عن ارتباط الكمال الإلهي بالإيمان النبوة، وباليوم الآخر.

- **أما ارتباط الكمال الإلهي بالإيمان بالنبوّة:**

---

[١] النحل: ٦٠.

[٢] البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

فإن من النعم العظيمة التي ترتبط بكمال الخالق سبحانه: إرسال الرسل إلى البشر، ولنتأمل في بعض صفات الكمال حتى يتبين لنا ارتباط إرسال الرسل بكمال الخالق سبحانه:

١. **كمال القدرة**؛ فإن الإنسان إذا آمن باتصاف الخالق بالقدرة التامة، فإنه يعلم أن إرسال الرسل داخل في قدرته ﷻ؛ فالخالق الذي خلق هذا الكون الفسيح المتقن، والذي خلق الإنسان ويسر له رزقه، قادر على الاتصال مع البشر، ليتم رحمته عليهم، ويرشدهم إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم.

٢. **كمال الرحمة والحكمة والعدل**؛ فإن من تأمل هذه الصفات، ثم نظر إلى واقع البشر وأحوالهم، تبين له أن إرسال الرسل أمر مهم ولا بد منه، وأنه متسق مع كمال رحمة الله وحكمته وعدله؛ وذلك أن الإنسان لا بد أن يكون خاضا لله تعالى، وهو في هذا الخضوع بحاجة إلي معرفة ما يحبه الله تعالى منه، وما لا يحبه، ليحقق ذلك الخضوع وتتحقق به مصالحه مهتديا بما يشرعه له الخالق.. كما أن الإنسان يتشوف إلى التعرف على كمال الله سبحانه، ولما كان الإنسان وحده غير قادر على تحصيل ذلك، اقتضت حكمة الله تعالى وعدله ورحمته أن يرسل الرسل ليدلوا البشر على ما فيه صلاح أحوالهم ونجاتهم.

- **وأما ارتباط الكمال الإلهي بالإيمان باليوم الآخر:**

فلا تقتصر دلالة الكمال الإلهي على إمكان النبوة وأهميتها، بل تدل كذلك على إمكان حدوث اليوم الآخر.

- فإن كمال قدرة الله تعالى يدخل فيها قدرته على إيجاد يوم آخر.

- كما أن من تأمل عدل الله تعالى وحكمته، ثم نظر في أحوال الناس في الدنيا تبين له حتمية وجود الجزاء العادل يوم القيامة؛ وذلك لأن طبيعة الدنيا أنها دار امتحان واختبار، وبالتالي فهي دار بلاء وكدر وتظالم بين الخلق... فمن كمال عدل الله تعالى وحكمته أن توجد دار أخرى يتجلى فيها العدل التام، والنعمة الكاملة.

ولنتأمل في نهاية الكلام هذه الآيات من سورة الحشر، والتي سبقها آيات تتحدث عن أحوال بعض من لم يستجيبوا لرسل الله سبحانه، فبين الله تعالى استحالة استواء مصير المصدقين مع مصير المكذبين يوم القيامة، وهذا دال على كمال عدله سبحانه، ثم بين عظيم أمر القرآن، وأهمية العمل به، معقبا ذلك بذكر عدد من أسمائه الدالة على صفاته الكاملة ﷻ:

﴿لا يَستَوي أَصحابُ النّارِ وَأَصحابُ الجَنَّةِ أَصحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفائِزونَ * لَو أَنزَلنا هذَا القُرآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيتَهُ خاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِن خَشيَةِ اللَّهِ وَتِلكَ الأَمثالُ نَضرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذي لا إِلهَ إِلّا هُوَ عالِمُ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذي لا إِلهَ إِلّا هُوَ المَلِكُ القُدّوسُ السَّلامُ المُؤمِنُ المُهَيمِنُ العَزيزُ الجَبّارُ المُتَكَبِّرُ سُبحانَ اللَّهِ عَمّا يُشرِكونَ * هُوَ اللَّهُ الخالِقُ البارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسماءُ الحُسنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾[١].

مراجع استُفيد منها في المقال :

- العقود الذهبية للدكتور سلطان العميري.
- ظاهرة نقد الدين للدكتور سلطان العميري.
- حقيقة الكمال الإلهي وأقسام الصفات للدكتور محمد السيد محمد.

[١] الحشر: ٢٠-٢٤.

الكاتب : طارق عنقاوي - تسنيم راجح
مراجعة: طارق عنقاوي - سمر لطفي

إضاءات عن الاستدلال على وجود الله عز وجل

(مقالة ختامية لمحور أدلة وجود الله تعالى)

تعرفنا في رحلتنا إلى مجموعة من الأدلة على وجود الله تعالى وكماله؛ لنصل الآن إلى مقالةٍ ختاميةٍ تعرض بعض الإشارات المهمة المكمّلة لِتصوراتنا حول الإيمان بالله تعالى.

تعدد أنواع الأدلة وتعدد أمثلة كل نوع

لاحظنا تعدّد أنواع الأدلّة، ولمسنا قوة كل دليلٍ في ذاته، وكذلك تعدد أنواع الأدلة، فقد مررنا على دلالة الخلق وما فيه من الإتقان والإحكام، ورأينا كيف أنّ الله تعالى أودع الدلائل عليه في حياتنا ووعينا وتعقّلنا وما فطرنا عليه من المعاني والقيم والإرادات، ووقفنا على دلالات عظيمة متتابعة في الجمال والغرائز، واستشعرنا فطرية التدين الأصيلة في نفوس البشر، وسبحان الذي نوّع الآيات على عظمته لتستبين سبيله جلّ وعلا.

وإن الواقف مع طبيعة هذه الأدلة سيجد أنّها أنواع يتضمّن كلّ منها الكثير من الأمثلة، بل قد تكون الأمثلة غير قابلة للحصر.

- فدليل الخلق والإيجاد يبرز لك في كل مخلوق، كما قال الشاعر[١]:

  وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنّه واحدُ

- ودليل الإحكام يبرز في كل ما يقع تحت الحواس لو أعملنا فيه أدنى قدر من التأمل، فتظهر دقة الصنعة وحكمة الصانع.

[١] لبيد بن ربيعة

- ودليل الحياة يأخذ بمجامع قلبك لو نظرت لأصغر كائن ذو خلية واحدة، فضلا عن الكائنات الأخرى بما فيها من مليارات الخلايا والأنسجة والأعضاء المتكاملة.

⇦ **وهكذا نجد الأمر في كل دليل، وهذا لا شك يعظّم من أثر هذه الأدلة في نفوسنا من الإيمان بالله تعالى ومحبته والانقياد له وإخلاص العبودية له سبحانه.**

ما الذي يلزم ليحصل اليقين؟

إن أدلة وجود الله فطرية ثابتة في النفس، ولا نعني بذلك فطرية الإقرار بوجود الله والخضوع له كما بيّنا في دليل أصالة التدين فحسب، بل إنّ الأدلة العقلية نفسها مبنية على قواعد فطرية وعقلية أولية مثل قاعدة السببية.

وبناء على ذلك، فإنّ اليقين بوجود الله تعالى لا يتطلّب في العموم معرفة كل الأدلة التي يمكن أن تصاغ للاستدلال على ذلك، بل إنّ الأمر لا يحتاج أكثر مما يحصل لكل إنسان من الإيمان الفطري، والتفكّر في خلق الله وآياته وما دلت عليه من كماله سبحانه، فذلك من أعظم أسباب اليقين، فكيف إذا أضيف إلى ذلك قراءة آياته المنزلة في القرآن وهي التي تحوي أعظم الحجج الفطرية والعقلية، وكيف إذا تكلّل ذلك بالاستقامة على أوامره سبحانه والالتزام بأحكامه وتشريعاته، فزاد بذلك إيمان العبد بالطاعات وزاده الله من هداه كما وعد في كتابه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[١].

⇦ **فالغرض مما قدّمناه في هذا المحور هو لفت الأنظار إلى الآيات الكثيرة الدالة على الله تعالى وكماله**، لا أنّنا ابتكرنا شيئًا لم نسبق إليه، وقد نكون قد

---

[١] محمد: ١٧.

عمّقنا في بعض صياغات الحجج وفرّعنا فيها، ولهذا التعميق فوائده، لكنّنا لا نقول بأنّ اليقين لا يحصل إلا بمعرفة هذه الصيغ المعينة في الاستدلال، لكن قد ينتفع بها بعض الناس وتؤثّر فيه.

(وقد أشرنا سابقا إلى هذا في مقال: لماذا الحديث عن أدلة وجود الله عز وجل؟).

التعامل مع الوساوس الطارئة

هل يهتزّ اليقين بكل وسواسٍ يرد على النفس في مسيرتها؟

ينبغي التنبه إلى أن الوساوس لا تدلّ على الشك، ولا يلزم لحصول اليقين وبقائه ألا يعرض أي منها للمؤمن، بل إن العبد تأتيه الوساوس ويشعر بالضيق منها، وهذا بذاته دليلٌ على إيمانه كما جاء في الحديث الذي هو بلسم للقلب، فعن أبي هريرة قال: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»[١].

فلا تصنف نفسك بأنك شاكٌّ لمجرد لحظة ضعف راودتك فيها بعض التساؤلات أو هاجمتك فيها بعض الوساوس.

علّق النووي على الحديث قائلًا: "فقوله ﷺ: ذلك صريح الإيمان، ومحض الإيمان، معناه: استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه، ومن النطق به، فضلًا عن اعتقاده، إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالًا محققًا وانتفت عنه الريبة والشكوك"[٢].

---

[١] صحيح مسلم (١٣٢).

[٢] المنهاج (٢، ١٥٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة -رحمه الله- في الفتاوى: "والمؤمِنُ يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر، التي يضيق بها صدره، كما قالتِ الصحابة: يا رسول الله، إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: ذاك صريح الإيمان، وفي رواية: ما يتعاظم أن يتكلم به، قال: الحمد الله الذي رد كيده إلى الوسوسة، أي: حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له، ودفعه عن القلوب هو من صريح الإيمان، كالمجاهد الذي جاءَهُ العدو، فدافعه حتى غلبه، فهذا عظيم الجهاد.."[١].

⇦ **ولوجود الله وصحة الإسلام أدلة قاطعة ظاهرة، فاعتمد على الأدلة واعتقد ما تدل عليه بيقين، ولا تلتفت للوساوس ولا تعتبر أن سببها هو شك منك بالضرورة**، فكل إنسان قد يتعرّض لذلك من الشيطان ليحزنه ويدخله في دوامة ويفسد عليه صفو علاقته بالله، ويمكن أن تصيب أي دارس حتى المتخصصين، لأنها في حقيقتها وسوسة من الشيطان، ولأنّ عدو الله يغتاظ أكثر ما يغتاظ من سعي المؤمن في تحصين إيمانه، فكلما ازداد دليلا، ألقى إليه الوساوس، والمؤمن يستعيذ برب الناس، في دفع شر الوسواس الخناس.

وتأمل في حضور الشيطان عند تلقي آي الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢]، فله سعيٌ حثيثٌ خبيثٌ في محاولة حجب نور الحقّ عن المؤمن وتشويشه وإلقاء الشكّ فيه حال تلقي المؤمنين للبينات من ربهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: "ولهذا يوجدُ عند طلاب العلم والعباد من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم؛ لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه، بل

---

[١] مجموع الفتاوى (٧ ، ٢٨٢).
[٢] الحج: ٥٢.

هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه، وهذا مطلوب الشيطان، بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة، فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله تعالى"[١].

وعلى المؤمن ألا ينسى تعاهد القلب وسقيه بماء الإيمان بقراءة كتاب الله وتدبره والاهتمام بالصلاة والإحسان فيها، وغير ذلك من العبادات القلبية والقولية والعملية، فلا ينبغي أن ينشغل عن ورده والعناية به والإحسان فيه، ومع الاستمرار والصبر وإخلاص النية سيحترق عدو الله، وسيجد المؤمن انشراحا وراحة عظيمة بإذن الله.

حصول اليقين بالله تعالى يكمل بأدلة مكونات العقيدة الأخرى.

من الأدلة التي قد يغفل بعض الناس عن دلالتها على وجود الله تعالى أدلة النبوة وأدلة صحة الإسلام عمومًا، فالنبي يدل على من أرسله، والدين يدل على من أنزله، ولذلك فإنّ دلائل النبوة ومعجزاتها هي مما يثبّت ويزيد اليقين بالله تعالى، وكذلك ما يدل على صحة الإسلام عمومًا من محاسن وكمالات هذا الدين العظيم.

هل ينتهي الأمر عند الإيمان بوجود الله؟

ينبغي التنبّه إلى أنّ اليقين بوجود الله تعالى وكماله ووحدانيته لا يكفي في النجاة إذا لم يقترن بلوازمه، فالإيمان بالله يلزم منه التسليم لأمره والتصديق بخبره، والأمر والخبر جاء به الرسل الذين يبلّغون ما أنزل الله من الوحي.

---

[١] مجموع الفتاوى (٧ ، ٢٨٣).

إنّ الإقرار بوجود الله فطرة وضرورة عقلية، ولولا مكابرات أهل الأهواء لما احتاجت هذه القضية لكتابة صفحة! فيجب ألا تقتصر الهمم على إثبات هذه القضية وحدها، فهي بداية لا نهاية، ثم يترتب عليها كل شيء في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، ليكون الإيمان بالله بمعناه الشمولي ولوازمه قضية الإنسان الكبرى التي لا يقاربها شيء في عظمتها وخطورتها.

تأمل محور الرسالات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[١]، فهي عبادة الله بكل معانيها والكفر بالطاغوت بكل معانيه، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]، إنها عبادة الله بالمحبة والتعظيم المتغذّيان بمعرفته بالفطرة والوحي، وبمشاعر القلب خوفًا ورجاءً ورغبةً ورهبةً وتسليمًا، وبكل جارحة وقول يحبه تبارك وتعالى.

ولأنها عبادة لا أي محبة، ولأنه الله الواحد الأحد، فإن المؤمن يأبى أن يجعل له ندًّا في عبادته وأسمائه وصفاته، ويرى ذلك أعظم الظلم، فيوالي ويعادي فيه، فإذا فقهت ذلك انضبطت مواقفك وحركاتك وسكناتك حتى يكون محياك ومماتك لله، فتُخلِص وتَخلُص، فلا يسلط عليك شيطان وتحرق بنورك الظلمات.

لذا، فإنّ مشروع **الميسّر في تعزيز اليقين** سيواصل عمله بعون الله على تقديم المزيد من المقالات في محاور قادمة، ومع ختام هذا المحور، فإننا نسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن ينفع بما كُتِب وأن يتقبله خالصة لوجهه الكريم، ويجعله نورًا على طريق كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ للوصول إلى القلب السليم الذي يفلح من لقي الله به.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا.

---

[١] النحل: ٣٦.

[٢] الأنعام: ١٦٢.

تليجرام (https://t.me/moyassaryaqeen)

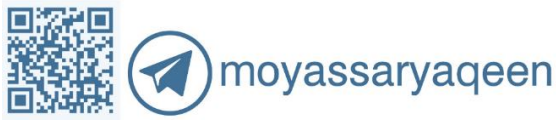

تويتر (https://twitter.com/moyassaryaqeen)

فيس بوك (https://fb.me/moyassaryaqeen)